ياسمينة قليس

حياة أمي... بين الألم والأمل

دار بسمة للنشر الإلكتروني

حياة أمي بين الألم والأمل

اسم الكتاب: حياة أمي بين الألم والأمل

اسم الكاتبة: ياسمين قليس

نوع العمل: رواية

الرقم الدولي EBIN: 16-1-434-260228

الناشر: دار بسمة للنشر الإلكتروني

الطبعة الأولى: 2026م / 1447هـ

دار بسمة للنشر الإلكتروني

00212771814934

@ bassmabook

bassmabook@gmail.com

المملكة المغربية

كل الحقوق محفوظة

دار بسمة للنشر الإلكتروني تُقدم جميع خدمات النشر، ولا تتحمل أي مسؤولية تجاه المحتوى، إذ إن الكاتب وحده هو المسؤول عن نتاج فكره.. ولا يجوز بأي صورة نشر أو إعادة طبع أي جزء من هَذَا الكتاب، أو نقله عَلَى أي نحو كَانَ، أو بأي طريقة سواء كَانَت إلكترونية أو بالتصوير أو خلاف ذلك، إلاّ بموافقة خطية من الناشر أو المؤلف. ©

حياة أمي

بين الألم والأمل

رواية

ياسمين قليس

دار بسمة للنشر الإلكتروني

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى أمي الغالية...

إلى تلك المرأة التي علّمتني معنى الصبر دون أن تنطق،

ومعنى القوة وهي في أضعف لحظاتها،

إلى من كانت تحارب الألم بابتسامة،

وتخفي وجعها كي لا نحزن،

إلى من رحلت جسدًا وبقيت روحًا تسكنني في كل سطر كتبته،

وفي كل دمعة سالت،

وفي كل أمل وُلد من رحم الألم...

هذا الكتاب يا أمي هو ، شهادة حبٍ لا يموت،

ووفاء لرحلة عشناها معًا حتى آخر نفس.

إلى أبي...

سندي بعد الله،

ذلك القلب الصامت الذي حمل الفقد دون شكوى،

والذي بقي واقفًا رغم الانكسار،

وجودك يا أبي منحني الأمان في زمن كانت الأرض تميل بي،

فلك مني كل الامتنان وكل الحب.

إلى أخواتي العزيزات:

سهام، وسناء، وإيمان...

شريكات الألم، ورفيقات الذكريات،

من تقاسمن معي الخوف والدعاء،

والصبر الطويل في الممرات البيضاء،

كنتن مرآتي حين ضعفت،

وصوتي حين عجزت عن الكلام،

هذا الكتاب يحمل أسماءكن بين سطوره وإن لم تُكتب.

إلى أخي محمد أمين...

دعاؤك، صمتك، وقلبك الحاضر دائمًا

كانوا قوة خفية أستند عليها،

أشكرك لأنك كنت أخًا وقت الحاجة،

وحائطًا لا يميل.

إلى زوجي...

رفيق دربي،

وشريكي فيه هذه الرحلة الحزينة.

من أمسك بيدي وسط العاصفة،

دعمتني ماديًا ومعنويًا،

دفعتني لأكتب، لأواجه، ولأحوّل الألم إلى حروف،

هذا الكتاب لم يكن ليكتمل لولاك،

فهو يحمل بصمتك كما يحمل اسمي.

وإلى نور عينيّ، وبذرة الأمل في حياتي...

بناتي جنات وجنان،

أهديكن هذا الكتاب ليكون شاهدًا على أن الألم يمكن أن يُنجب قوة،

وأن الفقد لا يعني النهاية،

وأن أمكن مهما تعثرت،

فهذا الكتاب رسالة حب لكنّ،

لتعرفن يومًا كم كانت جدتكن عظيمة،

وكم كان الطريق صعبًا،

وكم كان الإيمان بالله أقوى من كل الوجع.

هذا الكتاب ليس حكاية حزن فقط،

بل شهادة حب،

وقصة صبر، وإيمان

وحياة كتبت بين الألم والأمل.

المقدمة

الأم... تلك الكلمة التي تحمل دفء الحياة، ومصدر الحب الذي لا ينتهي، وقلبًا يفيض بالعطاء بلا حدود. هي التي تمنحنا الأمان من أول نفس، وتظل تحمينا حتى في أصعب الظروف، وتقاتل معنا ومع نفسها لتحافظ على ابتسامة تزين وجوهنا، حتى وإن كان جسدها يئن من الألم. أمي كانت مثالًا حيًّا لذلك، امرأة صلبة رغم ضعف الجسد، محاربة رغم التعب، صابرة رغم المعاناة.

خاضت أمي أربع عمليات قاسية، كل واحدة منها كانت صراعًا جديدًا مع الألم، ومع الجسد الذي لم يعد يحتمل. بعد كل عملية، كانت تنهض ببطء، تحمل ابتسامة رغم التعب، وتقاتل لتستعيد قوتها من أجلنا. لم يكن صبرها مجرد صبر جسدي، بل صبر روح، صبر إيمان، صبر حب وعطاء بلا شروط. كانت تعلمنا معنى القوة الحقيقية: أن تكون قادرًا على مواجهة الصعاب رغم الخوف، وأن تحافظ على الأمل حتى في أظلم اللحظات.

كل عملية تركت أثرًا على جسدها، لكن قلبها ظل نابضًا بالإيمان، وعقلها متيقنًا بأن الإرادة تصنع المعجزات الصغيرة في كل يوم. كانت تضحي بنفسها، بصحتها، وراحة جسدها، من أجلنا ومن أجل أن نرى نورها حيًّا رغم كل الألم. أمي علّمتنا أن الشجاعة لا تُقاس بالعضلات، بل بالحب، وبالإيمان، وبالقدرة على الصمود أمام كل عواصف الحياة.

منذ طفولتي وأنا أحمل في داخلي خوفًا لا يعرفه أحد. كنت صغيرة جدًّا، لكن قلبي كان كبيرًا إلى الحد الذي يجعلني أخاف من فقدان أمي دون سبب واضح. كنت أظن أن الحياة بسيطة، وأنها تطاوع رغباتنا كما نريد، وكنت مؤمنة أن أمي ستبقى دائمًا لأنني لا أتصور العالم بدونها.

كنت أقول في نفسي ببراءة طفلة: لو احتاجت أمي قلبي كي تعيش، فسأعطيها إياه دون تردد.

كنت أؤمن بذلك إيمانًا كاملًا، وكأن التضحية بالأعضاء أمر سهل، وكأن الحب وحده قادر على أن يصنع المعجزات.

كنا صغارًا، لا نرى من الحياة إلا تفاصيلها البسيطة: نأكل، ونلعب، وننام، ونستيقظ فنجد أمنا أمامنا. كان وجودها بالنسبة لنا أمرًا طبيعيًّا لا يحتاج إلى تفكير، فهي الأمان الذي لا يتغير.

ومع ذلك... كان هناك شيء داخلي يوقظني أحيانًا في منتصف الليل. كنت أنهض من فراشي بهدوء، وأمشي بخطى خفيفة نحو غرفة أمي، فقط لأتأكد أنها ما تزال تتنفس. كنت أقف قربها، أراقب صدرها وهو يرتفع وينخفض، وحين يطمئن قلبي، أعود إلى فراشي كأنني استرجعت الحياة من جديد.

هذا الجزء من مخاوفي لم أبح به لأحد قط... ظل سرًّا صغيرًا أخفيه في داخلي، خوفًا من أن يبدو مبالغًا أو غريبًا، لكنه كان حقيقيًا جدًّا بالنسبة لطفلة لم تتخيل يومًا أن الأم ستغيب.

كنّا أربعة إخوة، وأخًا، نعيش حياتنا ببساطتها المعتادة، لا نحمل من هموم الدنيا إلا ما يناسب أعمارنا الصغيرة. وفي سنة 2010 بدأت ملامح الغموض تتسلل إلى بيتنا دون أن نفهم معناها. كانت أمي تقول بين الحين والآخر: "بطني يؤلمني... أحس به قاسيًا". كنا نسمعها، ولا يخطر ببالنا أن وراء تلك الشكوى المتكررة شيئًا كبيرًا. كنا نظنها تعبًا عابرًا أو مرضًا بسيطًا سيزول مع الراحة.

لكن الأيام مرت، وازدادت حيرتها، فذهبت لإجراء التحاليل والفحوصات، وبقيت أسابيع تتردد بين المستشفى والبيت. كنا نرى في عينيها إرهاقًا، لكنها تحاول أن تخفيه حتى لا تقلقنا. وبعد شهر طويل من الانتظار، جاء الخبر بأنها بحاجة إلى عملية جراحية لاستئصال المبيض.

استعدت أمي للعملية بقلب ثابت، على الرغم من أننا كنا نشعر بالخوف دون أن نفصح عنه. أجرت العملية قبل عيد الأضحى بعشر أيام تقريبًا. ولأننا ما زلنا صغارًا، كنا نصدق كل ما يقال لنا: "الأمر عادي... العملية بسيطة". فحاولنا أن نطمئن أنفسنا بذلك.

حل العيد الكبير، ونتذكر دائمًا كيف تولى أبي كل شيء: الذبيحة، والتحضيرات، وحتى أدق التفاصيل، كي لا تشعر أمي بالتعب. كنا نراه يحاول أن يبدو قويًا، بينما كان قلبه يرتجف خوفًا عليها.

لكن في مساء ذلك اليوم، حدث ما زاد مخاوفي. رأيت الماء يخرج من موضع العملية. تجمدت في مكاني، لم أفهم ما يحدث، سوى أن شيئًا غير طبيعي يجري. كانت الساعة الرابعة حين حملت

الهاتف واتصلت بالطبيب، وقلبي يدق بسرعة لا تشبه أي خوف عرفته من قبل.

حين رد الطبيب، لم أشعر في صوته بأي قلق يتناسب مع حجم خوفي. كنت أتحدث إليه وداخلي يرتعش، لكنه قال لي ببرود جارح: "أمك مريضة بسرطان... وهذا أمر عادي".

تلك الجملة سقطت على قلبي كالصاعقة. شعرت وكأن الهواء انقطع عن صدري للحظات. بقيت صامتة غير قادرة على الرد. احتجت وقتًا لأستوعب أن كلمة "سرطان" قيلت بهذه السهولة... وكأنها لا تمس قلبي ولا حياتنا.

وبعد أن استجمعت بصعوبة أنفاسي، سألته: "وماذا علينا أن نفعل الآن؟" فأجاب بنفس البرودة: "أحضروها إلى العيادة".

كنت في السابعة عشرة من عمري... طفلة أمام صدمة بهذا الحجم، أحاول أن أفكر كيف سأخبر أبي وإخوتي بما سمعت، وكيف سأحمل فوق كتفي حملًا أكبر بأضعاف من عمري... كنت أرتجف، لكن كان علي أن أكون قوية، رغم أن القوة في داخلي كانت على وشك الانهيار.

الجزء 1

حين ذهب والداي إلى الطبيب، لم يكن في ذلك الزمن ما يخفف قسوة الانتظار. لم تكن هناك هواتف محمولة ولا وسائل تواصل سريعة نعرف بها ما يجري. كان في البيت هاتف ثابت، وكان لدى أبي هاتف محمول آخر، لكنه لم يكن كافيًا ليطمئن قلوبنا. عندما خرج أبي مسرعًا، تركنا خلفه في فراغ ثقيل، لا نعرف أين وصل، ولا ماذا سمع، ولا كيف سنحتمل ما سيأتي بعد ذلك.

بقينا في البيت ننتظر. لم يكن الانتظار مجرد وقت يمر، بل كان امتحانًا صامتًا للأعصاب. كانت الدقائق تتقدم ببطء شديد، دقيقة تجر أختها. كنا نحسب الوقت دون أن ننتبه، نراقب الباب، نصغي لأي صوت، ونفزع من كل حركة.

كنت أنظر إلى إخوتي فأجد الخوف نفسه في أعينهم. كنا نجلس صامتين نحدق في الفراغ، وكأننا نحاول أن نفهم ما يحدث دون أن تسأل إحدانا الأخرى. أما أخي، فلم يجد في الصمت ملجأً له؛ رأيته يضرب يده بالحائط بقوة، مرة بعد أخرى، ولم يظهر عليه أي ألم. كان واضحًا أن الألم الحقيقي لم يكن في يده، بل في قلبه الذي لم يحتمل هذا الانتظار القاسي.

وحين عاد والداي أخيرًا، ودخلا البيت، شعرت بأن شيئًا ما قد تغير إلى الأبد. لم يدخلا كما كانا دائمًا؛ دخلا مثقلين، بخطوات بطيئة، وبوجوه تحمل ما لا تستطيع الكلمات قوله. في تلك

اللحظة، شعرت وكأن عقولنا خرجت من أماكنها، وكأننا نُدفع دفعًا نحو واقع لم نكن مستعدين له.

رأيت فيهما محاولة صامتة للتعايش مع صدمة ثقيلة. لم تكن هناك دموع، لكن الصمت كان أبلغ من أي بكاء. سألتهم بصوت خافت: ماذا حدث؟ ماذا قال الطبيب؟ وماذا سنفعل الآن؟

بدأت أمي تتحدث بهدوء مؤلم، وكأنها تروي قصة لا تخصها. قالت إن الطبيب ضغط على بطنها فخرج السائل كله، ثم غيّر الضمادات، وأخبرهم أن علينا انتظار الموافقة من التغطية الصحية لنبدأ بحصص العلاج الكيميائي. كانت كلماتها بسيطة، لكنها كانت تسقط في قلوبنا كأحجار ثقيلة.

كان أبي ينظر إليها وهي تتحدث، وكأنه يحاول أن يحفظ ملامحها وهي أمامه. ثم قال لها بصوت حاول أن يجعله مطمئنًا: "ستشفين... وستعودين بخير... ليس لديك شيء خطير". كان يكرر هذه الكلمات وكأنه يتشبث بها ليبقى واقفًا.

أما أنا، ففي تلك اللحظة، شعرت بأن علي أن أعرف أكثر. لم أستطع الاكتفاء بما قيل. أردت أن أفهم هذا المرض الذي اقتحم حياتنا فجأة، أن أعرف كيف يُعالج، وكيف يمكننا مساعدتها، وما الذي يجب عليها أن تأكله أو تتجنبه. لكن معرفتي كانت محدودة، وكل ما كنت أعرفه عن السرطان أنه يُسقط الشعر ويترك الإنسان ضعيفًا. في ذلك الوقت، لم تكن المعلومات متاحة كما هي اليوم.

كان لدينا حاسوب في البيت واتصال بالإنترنت، وكنا نستعمله بالتناوب، لكل واحد منا وقت محدد. وحين جاء دوري، جلست

أمام الشاشة وبدأت أبحث وأبحث. قرأت عن الأمل، عن نِسب الشفاء، عن إمكانية العودة إلى الحياة الطبيعية حتى بعد استئصال بعض الأعضاء. تعلقت بهذه الكلمات، وقلت في نفسي: ربما ستنجو... ربما سيعود كل شيء كما كان.

لكنني قرأت أيضًا ما لم أكن مستعدة له. قرأت أن سرطان المبيض، إذا لم يُعالج، قد لا يمنح المريض سوى سنوات قليلة من الحياة. خمس سنوات... ربما أقل.

توقفت عند هذه الجملة طويلًا. شعرت بأن الهواء اختفى من حولي. بدأت أرتجف، وكأن جسدي كله يرفض تصديق ما تقرأه عيناي. كيف يمكن لأمي أن تُختصر في رقم؟ كيف يمكن لعمرها أن يُقاس بالسنوات؟ كيف أعيش وأنا أعرف أن الوقت قد يكون محدودًا؟

حاولت أن أخفي ما قرأت عن إخوتي. لم أرد أن أزيد خوفهم، لكن خوفي أنا كان يكبر. كنت أفكر: كيف يمكن للإنسان أن يعيش دون أمه؟ كيف سيبدو البيت من دون صوتها؟ هل تنتهي حياتنا معها؟

زادني الخبر الأول انكسارًا، ثم جاء هذا ليكمل ما بقي مني. ولم يكن أمامي إلا أن أستسلم لحقيقة واحدة: هذا قدر كتبه الله، ولا مهرب منه.

في تلك الأيام، اقتربت من الله كما لم أفعل من قبل. بدأت أقوم الليل، وأبكي في صلاتي بصمت. لم أكن أريد أن يراني أحد وأنا ضعيفة. أردت أن يكون ضعفي كله بين يدي الله. كنت أسجد طويلًا، وأبكي حتى تتعب روحي، وأقول: لا أستطيع أن أعيش يومًا

واحدًا دون أمي. كنت أقول: خذني أنا قبلها، ولا تجعلني أرى يومًا تغيب فيه. لم يكن ذلك اعتراضًا، بل خوفًا يفوق قدرتي على الاحتمال.

انتظرنا الموافقة من التغطية الصحية، ليأتي الفرج بعد واحد وعشرين يومًا بالضبط لبداية العلاج. كانت أول خطوة للعلاج ستكون عملية لوضع صدفة بجانب العنق، ويكون أنبوب خاص ليسهل لها مرور العلاج الكيميائي. وككل بداية تكون مرحلة صعبة، وكانت هذه البداية قاسية ومخيفة.

ووسط هذا الانكسار كله، بقي أبي ثابتًا إلى جانب أمي. لم يتركها لحظة واحدة، ولم يتراجع خطوة واحدة. كان يقف معها في كل مرحلة، يحاول أن يكون قويًا، رغم أن الحزن كان ينهشه من الداخل.

الجزء 2

حين اكتمل ملف العلاج، شعرت وكأننا نقف على عتبة حرب لا نعرف عنها شيئًا. كان الحزن حاضرًا في وجوه الجميع، حزنًا صامتًا لا يُقال، لأن البدايات دائمًا تكون الأصعب، خصوصًا حين ندخل طريقًا نجهل تفاصيله ونخاف مما يخفيه.

رتبوا الأمور كما جرت العادة، وحددوا لأمي موعدًا لإجراء العملية. كانت العملية في حد ذاتها سهلة، لكن الصعب لم يكن في العملية، بل فيما سيأتي بعدها. العلاج... ذلك الاسم الذي يحمل في طياته كل المخاوف.

كنت قد قرأت لاحقًا أن الجسد يعطي ردة فعل قاسية تجاه العلاج الكيميائي: انسداد الشهية، الغثيان، القيء، فقدان الوزن، تساقط الشعر، شحوب الوجه، إنهاك عام... وكلما قرأت أكثر، ازداد خوفي. لم نكن قادرين على استيعاب فكرة أن نرى أمنا بهذه الصورة.

بعد أربع وعشرين ساعة فقط من العملية، عادت أمي إلى بيتها، تنتظر أن يكتمل تعافيها لتأخذ أول جرعة من العلاج الكيميائي. انتظرنا قرابة أسبوع، وكان ذلك الأسبوع طويلًا وثقيلًا، مليئًا بالترقب والخوف.

إلى تلك اللحظة، كان أبي هو من يتكفل بكل شيء؛ يرافقها، ويعود بها، ويحاول أن يكون قويًا.

حل يوم جديد، حملت أمي ملفها الطبي، وتوجهنا إلى عيادة كبيرة في مدينة الدار البيضاء، عيادة معروفة بعلاج السرطان، يشرف عليها أستاذ كبير. منذ اللحظة التي دخلنا فيها، شعرت بأن المكان مختلف؛ كل شيء نظيف، صامت، ورائحة الدواء تملأ الأجواء، رائحة لا تُنسى.

كان هناك كثير من الناس؛ رجال ونساء، لكل واحد قصته، ولكل واحد ألمه الخاص. تقدمنا إلى الاستقبال، سلمنا الملف، وانتظرنا. تفحصوا التحاليل والملف كاملًا، سجلوا المعلومات، ثم قالوا لنا بهدوء: "انتظروا، سننادي عليكم".

دخلنا قاعة كبيرة. هناك، رأيت ما لم أكن مستعدة لرؤيته. نساء ورجال، بعضهم تبدو عليهم آثار العلاج بوضوح؛ وجوه شاحبة، أجساد متعبة، نظرات مثقلة. وبعضهم الآخر كان يبدو عاديًا، كأن المرض لم يمسه بعد. قلت في نفسي: الحمد لله على كل حال. كل واحد هنا جاء ليبدأ أو ليواصل معركته.

بعد نحو عشرين دقيقة، نادوا علينا. دخلنا إلى مكتب الطبيب. كان مكتبًا واسعًا، ممتلئًا بالملفات المصفوفة بعناية، كأنها قصص صامتة تنتظر من يقرأها.

نظر الطبيب في ملف أمي، وتحدث معها قليلًا عن بداية المرض، عن الألم، عما شعرت به. ثم طلب منها أن تنهض.

قاس ضغطها، راقب دقات قلبها، فحص بطنها، وضغط على موضع العملية حتى تألمت وصرخت.

قال بعدها بهدوء: "الأمر جيد، لا داعي للخوف، سنتبع العلاج وستكونين بخير". كتب نوع العلاج على الحاسوب، وأخرج ورقة، ووضعها في الملف، وسلمها لنا لنقدمها إلى سكرتيرته.

فعلنا ما طُلب منا، ثم انتظرنا دقائق أخرى قبل أن تدخل أمي إلى الغرفة المخصصة للعلاج. كانت غرفة كبيرة، تضم عشرات الأسرة، وكل سرير به مريض. كل واحد متصل بأنبوب الدواء، كل واحد يعيش لحظته الخاصة مع الألم والأمل معًا.

جلست أمي في مكانها. جاءت الممرضة، وجهزت الأنبوب الذي زُرع لها خلال العملية، وبدأ الدواء يسري في جسدها. كنت أراقبها من خلف زجاج الباب، أذهب وأعود كل عشر دقائق، لا أستطيع الابتعاد. كان أبي ينظر إلي بعينين مليئتين بالأمل، ويقول لي: "ستُشفى... وستعود أفضل من قبل".

مرت أكثر من ساعة وأمي تتلقى الدواء. كانت صابرة، هادئة، حامدة شاكرة. قبل أن تنتهي الجلسة، دخلت إليها وسألتها بصوت مرتجف: "ماما، كيف تشعرين؟ أنت بخير، أليس كذلك؟"

نظرت إلي بهدوء، وابتسمت ابتسامة خفيفة، وقالت: "الحمد لله، أنا بخير. هذا شيء عادي. لسنا وحدنا هنا".

نظرت حولي، ورأيت الوجوه المختلفة، الكبير والصغير، الرجل والمرأة، كلهم يسيرون في هذا الطريق الذي كتبه الله لهم.

عندها أدركت أن هذه ليست نهاية، بل بداية طويلة، وأننا سنمضي مع الوقت... خطوة خطوة، كما أراد الله.

الجزء 3

أنهت حصتها الأولى بكل حماس وتفاؤل. حين سألنا عن العلاج، لم نكن نعرف أن الطريق سيكون طويلًا، ولا أن الأيام ستعلمنا معنى الصبر الحقيقي. توجهنا إلى السكرتارية، ففتحت الملف الخاص بأمي، وقالت لنا بهدوء: هذا هو بروتوكول العلاج. اثنتا عشرة حصة، حصة كل أسبوع، في التوقيت نفسه، وقبل كل حصة تحاليل دقيقة لتقرير إن كانت قادرة على المتابعة أم يجب التأجيل.

في ذلك اليوم، خاضت أمي حصتها الأولى. لم تشتكِ، لم تُظهر خوفًا، فقط ابتسامة خفيفة وكلمة واحدة ترددها دائمًا: الحمد لله.

مر الأسبوع، ثم الثاني، ثم الثالث... أربع حصص كاملة، وبدأ الجسد يتعب. ظهرت أعراض الدواء، وانخفض الدم، وانخفضت الصفائح لأول مرة بشكل مخيف. قيل لنا: لن تُجرى الحصة هذا الأسبوع.

كان القرار قاسيًا، لكن أمي استقبلته بصبر عجيب. حاولت أن تكون قوية، والتزمت بنظام غذائي متوازن، وكأنها تخوض معركة صامتة مع المرض، سلاحها الإيمان.

بدأ الشعر يتساقط... كل يوم قليلًا.

لم يعد كما كان، صار خفيفًا، ثم ظهر ذلك الزغب الناعم، ومعه حكة في الرأس.

ملامح التعب سكنت وجهها، والشهية لم تعد كما قبل.

لكن رغم كل ذلك، كانت تقول بثبات:

"أنا قوية، وما أمر به مجرد امتحان... لست الوحيدة التي تمر بهذا، والحمد لله دائمًا وأبدًا".

لم يكن الطريق مستقيمًا. حصة تُجرى، وأخريان تؤجلان. كل أسبوع تحاليل، وكل مرة دم يُسحب، وانتظار وقلق.

مرت الشهور ببطء، حتى اكتملت الاثنتا عشرة حصة بعد قرابة ستة أشهر من الصبر. أُعطيت فترة نقاهة، أسبوعين من الانتظار الصعب.

تحليل جديد... وترقب.

النتيجة كانت أن المرض بدأ يموت... لكنه لم يختفِ تمامًا. اجتمع الأطباء، وتقرر إضافة ست حصص أخرى. عدنا إلى البداية، إلى الروتين نفسه، إلى الصبر نفسه.

وكان أبي، رغم عمله في البحر، يحضر مع كل حصة، يخرج من عمله ليأخذها، يرافقها، ثم يعود.

كانت العائلة كلها تمشي معها خطوة بخطوة، دون أن تشتكي.

ست حصص أخرى مرت...

تعب جديد، لكن أمل أقوى.

ثم جاء اليوم الذي لن ننساه.

تحاليل أخيرة...

نظرات الأطباء مختلفة...

ابتسامة الطبيب سبقت كلماته، وقالها ببساطة هزت قلوبنا:

"الحمد لله... شفيتِ. لا أثر للخلايا السرطانية في الجسد".

في تلك اللحظة، لم نستطع الكلام.

الفرح كان أكبر من الكلمات، وأثقل من الدموع.

بكى أبي، وضحكت أمي، وارتجفت قلوبنا شكرًا لله.

قال لها أبي:

"ألم أقل لك إنك ستتعافين؟"

نعم... تعافت، لكن قبل ذلك، علمتنا معنى الصبر،

وقوة الإيمان، وأن كلمة الحمد لله حين تُقال من القلب، تصنع المعجزات.

الجزء 4

لم يكن الفرح يومها مكتملًا، لكنه كان كافيًا ليمنحنا سببًا للاستمرار. حين خرجت التحاليل جيدة، وقال لنا الطبيب بابتسامة خفيفة: الحمد لله، الأمور مطمئنة، تنفسنا براحة. شعرنا وكأننا نخرج من نفق طويل مظلم، نبحث فيه عن أي بصيص نور.

قلنا في أنفسنا إن المرض رحل، وإنه تعب منا كما تعبنا منه، وإنه لن يعود مرة أخرى. تشبثنا بهذه الفكرة بقوة، ربما لأنها كانت الشيء الوحيد الذي يمنحنا الطمأنينة.

طلب منا الطبيب الانتظار ثلاثة أشهر فقط، ثم العودة لإجراء فحوصات مراقبة. مرت تلك الأشهر ببطء، كنا نعد الأيام، نراقب أمي في كل حركة، في كل نظرة، في كل تنهيدة. كانت تحاول أن تعيش بشكل طبيعي، تقوم بأعمالها اليومية، تبتسم، وتخفي تعبها خلف صبر كبير.

عادت أمي لإجراء التحاليل، وكانت النتائج جيدة. يومها عاد الأمل إلينا من جديد. قال لنا الطبيب إن الوضع مستقر، وإنه من الأفضل الانتظار تسعة أشهر أخرى. قبلنا القرار، ونحن نحمل في داخلنا خوفًا صامتًا، لكننا لم نظهره.

مرت الشهور التسعة، وكانت أمي بخير نسبيًا. لم تكن صحتها مثالية، لكنها كانت قوية، تتحمل، وتصبر. كنا نعيش بين الخوف والرجاء، نضحك أحيانًا، ونقلق كثيرًا دون أن نتكلم.

وقبل الموعد بشهر واحد فقط، بدأ كل شيء يتغير.

شعرت أمي بألم في بطنها. في البداية قالت إنه تعب عادي، ربما إرهاق، ربما توتر. لكننا كنا نعرف ذلك الألم، نعرفه جيدًا. كان يشبه ألمًا قديمًا، ألمًا ترك فينا خوفًا لا يُنسى.

لم ننتظر، لم نقل ربما يزول. توجهنا مباشرة إلى الطبيب. أُجريت التحاليل، وانتظرنا النتائج بقلوب متعبة. وحين ظهرت، سقطت الكلمة الثقيلة من جديد:

المرض عاد.

شعرت وكأن كل ما بنيناه من أمل قد انهار في لحظة واحدة. لم أبكِ، لم أصرخ، فقط شعرت بفراغ كبير في صدري.

ذهبنا بالنتائج إلى الطبيب الذي أجرى العملية السابقة. تصفح الملف طويلًا، ثم قال بهدوء قاسٍ:

المرض رجع، وهو موجود في الرحم.

وأضاف أن القرار ليس بيده وحده، وأن علينا الرجوع إلى طبيب العلاج الكيماوي ليحدد الخطوة القادمة.

جمعنا الملف، وذهبنا إلى الطبيب المختص. سلمنا الأوراق للسكرتيرة، وجلسنا ننتظر.

ساعة كاملة من الانتظار.

ساعة مليئة بالخوف، بالتفكير، بالدعاء الصامت.

كنا ننظر لبعضنا دون كلام، وكأننا نخشى أن ننطق بما نفكر فيه.

حين دخلنا، نظر الطبيب إلى أمي، ثم قال بصوت هادئ لكنه ثقيل:

المرض عاد، والحل الآن هو استئصال الرحم. العملية عادية ومباشرة. بعد العملية ستُعطى لك جرعات الكيماوي مرة أخرى بنفس الكمية وبنفس الروتين السابق.

لم نفهم كل شيء في تلك اللحظة. الكلمات كانت أكبر من قدرتنا على الاستيعاب. شعرت أن الدنيا ضاقت فجأة. في داخلي دار سؤال واحد:

متى تنتهي هذه الحلقة؟

لم نعرف ماذا نقول. لم نعرف كيف نكون أقوياء. كنا نخاف أن نبكي أمامها، أن نضعف، أن نزيد من وجعها. كنا في مدينة بعيدة عن أهلنا. رغم أننا عشنا فيها سنوات طويلة، إلا أننا شعرنا فيها بالغربة. لا أحد قريب، لا أحد ليقول: أنا معكم.

تم اتخاذ القرار.

وأمي، بكل هدوء، قالت:

ربي هو اللي كاين.

في الليلة التي قبل العملية، رأيت الدموع في عينيها. لم تسقط، لكنها كانت حاضرة. كانت تحاول أن تبدو قوية لأجلنا. كانت تردد دعاءً واحدًا:

بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم.

كانت تردده وكأنها تتشبث به، وكأنها تودع نفسها لله.

قالت لنا بصوت مطمئن:

"كما تغلبنا عليه في المرة الأولى، سنتغلب عليه في المرة الثانية... خير متخافوش... كونوا قويين".

نمنا تلك الليلة نومًا متقطعًا. عند أذان المؤذن لصلاة الفجر، استيقظت أمي، توضأت، صلت، ثم جلست قليلًا صامتة. في السابعة صباحًا خرجت من البيت، ولم تسمح لأحد أن يرافقها سوى أبي.

ذلك اليوم كان طويلًا... طويلًا بشكل لا يُحتمل.

ست ساعات من الانتظار، من الدعاء، من الخوف، من الأمل. كنا نراقب الوقت، نرفع أيدينا إلى السماء، ولا نملك سوى الدعاء.

عند الثانية مساءً، رن الهاتف.

كان أبي.

قال بصوت متعب:

أمكم خرجت من العملية... والطبيب قال إن كل شيء مر بخير.

في تلك اللحظة، انهارت دموعنا. بكينا، وحمدنا الله، وسجدنا شكرًا. لم يكن في قلوبنا سوى الامتنان، ولم يكن على ألسنتنا سوى ذكر الله.

كانت معركة أخرى...

لكن أمي خرجت منها، متعبة الجسد، قوية الروح، مؤمنة أن الله لا يترك عباده.

الجزء 5

خرجت أمي من المستشفى إلى البيت، وجلست، وكأنها تضع جسدًا أنهكه القتال على أرض آمنة. لكن آثار المعركة كانت واضحة. عيناها غائرتان، وجهها شاحب، حتى ملامحها لم تعد كما كانت. لم تكن بحاجة إلى أن تشتكي، فكل شيء فيها كان يقول إنها مرت من طريق صعب، طريق لا يخرج منه الإنسان كما دخله.

قال لنا الأطباء إنها تحتاج إلى وقت...

وقت لتسترجع جزءًا من صحتها، وقت لتقوى قليلًا، ثم تعود لتكمل العلاج.

وكأن المرض لم يكتفِ بكل ما أخذ، وقرر أن يبقى ضيفًا ثقيلًا لا يريد الرحيل.

جاءت العائلة من الناظور.

جدتي، تلك المرأة التي لم أرها يومًا ضعيفة، رأيتها تلك المرة منكسة الرأس، تخفي دموعها حتى لا تكسر ابنتها. خالتي، أولادها، وخالي... جاءوا ليطمئنوا، لكنهم خرجوا وقلوبهم مثقلة. كانوا يرون ابنتهم وأختهم، لكنها لم تكن كما عرفوها.

مرت فترة العلاج الأولى بعد العملية، وكانت من أصعب المراحل.

الغريب أن هذه المرحلة مرت تقريبًا بلا أحد.

عام كامل من الكفاح... عام عاشت فيه أمي المرض بصمت.

كان السؤال عبر الهاتف، والدعاء من بعيد، لكن الحضور الحقيقي كان نادرًا. كأن المرض يرهق الجميع، ليس فقط من يحمله، بل حتى من حوله.

أتذكر جيدًا زيارة خالها من طنجة.

ما إن رآها حتى انهار.

بكى دون كلام.

وقتها فقط أدركت معنى أن ترى شخصًا تحبه يتغير أمامك، دون أن تستطيع فعل شيء. أدركت أن الصحة ليست أمرًا عاديًا كما نظن، وأن أكبر نعمة نملكها هي نعمة لا نشعر بها إلا حين تضيع.

مر عام آخر...

عام من الصبر الذي لا يصفق له أحد.

حصة علاج تُنجز، وحصتان تُلغيان بسبب ضعف المناعة، بسبب فقر الدم، بسبب جسد لم يعد يحتمل. بدأنا نعيش مع المرض، لا نحاربه فقط. المستشفى أصبح مكانًا مألوفًا، نعرف ممراته، نعرف وجوه أطبائه، كأنه بيتنا الثاني الذي لم نختره.

حياتنا القديمة... تلك الحياة البسيطة، العادية، التي كنا نشتكي منها يومًا ما، اختفت.

أكثر من عشرين حصة كيماوي خاضتها أمي.

ولا أحد يعلم ماذا يعني أن تدخل امرأة تلك الغرفة مرة بعد مرة، وتخرج بابتسامة، وكأنها لم تُستنزف من الداخل.

لم تقل يومًا: تعبت.

لم تقل: لم أعد أستطيع.

كانت صامدة بشكل يخيف أحيانًا.

مؤمنة أن الله لا يبتلي إلا من يحب، وأن الصبر ليس خيارًا، بل طريقًا.

أنا لم أكتب قصتها عبثًا.

كتبتها لأن العالم يجب أن يعرف أن هناك أمهات يخضن معارك صامتة، لا يطلبن شفقة، ولا ينتظرن تصفيقًا. أمهات يحمدن الله حتى وهن يتألمن، ويقلن الحمد لله وهن أقرب إلى الانكسار من أي وقت.

أنهت أمي الحصص الأساسية، وأعادت التحاليل.

وجاءت النتائج... الحمد لله، المرض لم يعد ظاهرًا.

لحظة فرح خجولة، لأن الخوف لم يكن قد غادر قلوبنا بعد.

قال الطبيب إن عليها أن تستمر في حصة وقائية كل شهر، حتى لا تُعطى أي خلية فرصة للعودة. وكأننا كنا نعيش دائمًا في حالة استعداد للأسوأ.

في تلك السنة، كنت أعيش معركتي الخاصة.

البكالوريا.

كيف لطالب أن يدرس، وأمه تقاتل لتبقى على قيد الحياة؟

دخلت الامتحان، لكنني لم أنجح. لم أكتب، لم أستطع. كان رأسي ممتلئًا بكل شيء إلا الدراسة. شعرت بالفشل، بالحزن، بالذنب.

أعدت المحاولة في الاستدراكية، وبفضل الله، وبدعاء أمي الذي لم ينقطع يومًا، نجحت.

وفي السنة نفسها، جاءت قرارات أخرى.

أختي التوأم قررت الزواج، ولم تكمل دراستها.

كانت خطوة ثقيلة، لكنها كانت اختيارها، واختيارًا فرض علينا أن نتقبله.

ثم جاء القرار الأكبر...

العودة للاستقرار في الناظور.

قرار لم يكن سهلًا علينا. نحن كبرنا هنا، درسنا هنا، ضحكنا وبكينا هنا. كل شيء تقريبًا كان هنا. الناظور كانت مدينة نزورها فقط، لا مدينة نعيش فيها.

في البداية، قاومنا الفكرة.

لكن أمي وأبي كانا قد حسما أمرهما.

بحثنا عن بيت، وسبحان الله، كل شيء سهل. وجدنا البيت بسرعة، وكأن الله كان يقول لنا: توكلوا وأنا معكم.

أمي لم تكن تُظهر المرض.

كانت تقود الأمور، تخطط، تتحرك، رغم أنها ما زالت تتلقى العلاج كل شهر. لم أرَ فيها يومًا مللًا، ولا شكوى، ولا ضعفًا. كانت أقوى مما كنت أتصور، وأقوى مما يسمح به الجسد.

وكل ذلك...

فقط من أجلنا.

لكي لا نكسر، لكي لا نخاف، لكي نمضي في حياتنا.

هذه ليست قصة مرض فقط.

هذه قصة أم وضعت روحها درعًا لأبنائها.

قصة امرأة واجهت الألم، ولم تسمح له أن يسلبها إيمانها.

الجزء 6

وصل الوقت لمغادرة البيت. ذلك البيت الذي لم يكن مجرد جدران وسقف، بل كان عمرًا كاملًا، كان طفولة، وكان أمانًا، وكان ملجأً نعود إليه كلما خرجنا.

كان بيتًا بناه أبي حجرًا حجرًا، بتعبه وصبره، خطوة بعد خطوة، حتى اكتمل. وبيتًا صنعته أمي بروحها قبل يديها؛ كانت تضع فيه الحب قبل الأثاث، والطمأنينة قبل الزينة. كل زاوية فيه تحمل أثرًا منها، وكل ركن يشهد على سنوات من العطاء. ومع ذلك، كانت لديهما قناعة لا تتغير: مهما زينا المكان، ومهما وضعنا فيه من جهد ومال، فكل شيء سيبقى هنا، ونحن من سنرحل.

قرار الرحيل جاء سريعًا، بلا تمهيد، كأنه كان ينتظر لحظة واحدة فقط ليظهر. في يوم واحد تغير كل شيء. فككنا الخزائن التي عاشت معنا سنوات، جمعنا الملابس التي حملت رائحة أيامنا، رتبنا الأثاث وكأننا نغلق فصلًا كاملًا من حياتنا. لم يكن هناك وقت للحزن، كان علينا أن نتحرك. مع الفجر صلينا، ثم ملأنا الشاحنة، وانطلقنا في طريق طويل لا نعرف كيف ستكون نهايته.

استمرت الرحلة اثنتي عشرة ساعة. الطريق بدا بلا نهاية، والصمت ملأ السيارة. كان أبي يقود وهو يخفي تعبه، وأمي إلى جانبه تراقب الطريق بعينين مرهقتين، لكنها مطمئنة. كانت تحاول أن تبدو قوية، حتى لا نشعر بالقلق. أما نحن، فكان التعب يتسلل إلى

أجسادنا والملل إلى قلوبنا. بدأنا نتساءل في صمت: لماذا كل هذا؟ ولماذا يبدو القرار أصعب الآن؟ كنا نعلم أننا حين نصل، لن تنتهي المتاعب، بل ستبدأ من جديد.

وصلنا أخيرًا، لكن الراحة لم تكن في انتظارنا. أمام البيت، وقفت شاحنتان محملتان بكل ما نملك. العمال ينزلون الأغراض بسرعة، ونحن نصعد بها إلى بيتنا الجديد. شعرت حينها أن التعب لم يعد في الجسد فقط، بل أصبح في العيون، في الأنفاس، في الصبر. الانتقال من مدينة إلى أخرى ليس مجرد مسافة، بل هو اقتلاع من حياة مألوفة وزرع في أرض جديدة لا نعرفها.

في تلك الليلة، أكلنا بصمت، ثم نمنا نومًا ثقيلًا. وفي الصباح، بدأ كل شيء من جديد: ترتيب، تنظيف، تركيب، محاولات متكررة لنصنع بيتًا من جديد. أبي يعمل بلا توقف، وأمي، رغم مرضها، كانت تتحرك وتساعد قدر استطاعتها. كانت تتعب، لكنها لا تشتكي. كانت تؤمن أن البيت يجب أن يقف، حتى لو تعبت هي.

استغرق الأمر أسبوعًا كاملًا حتى أصبح البيت جاهزًا. أسبوع من الإرهاق، من التأقلم، من محاولات التعايش مع مدينة جديدة. وسط كل هذا، كان هناك حدث كبير ينتظرنا: زفاف أختي. انشغلنا بالتحضيرات، بين ترتيب البيت والاستعداد للعرس. في زحمة الأيام، نسينا مرض أمي، أو ربما تجاهلناه لأننا لم نكن مستعدين لمواجهته.

عاد أبي إلى عمله، وبدأت أنا حياتي الجديدة. التحقت بمعهد لحفظ القرآن، وسجلت في الجامعة. كانت الأيام تمر بسرعة،

نحاول أن نبدو بخير، وأن نقنع أنفسنا أن كل شيء يسير كما يجب. جاء يوم الزفاف، وكان عرسًا كبيرًا، اجتمعت فيه العائلة، وضحكنا، ومر اليوم بسلام. انتقلت أختي إلى بيتها، وعدنا نحن إلى حياتنا العادية.

مرت أحد عشر شهرًا. بدا كل شيء هادئًا من الخارج، لكن أمي كانت تشعر في داخلها أن شيئًا ما ليس على ما يرام. لم تشتكِ، لم تتحدث كثيرًا. فقط صمتها كان أطول من المعتاد. في النهاية، قررت أن تعود إلى الدار البيضاء من أجل الفحص والعلاج. لم تخبرنا بتفاصيل ما تشعر به، لأنها لم تكن تريد أن تقلقنا. قررت أن أسافر معها، لأن أبي كان لا يزال مرتبطًا بعمله هناك.

كانت رحلة الحافلة متعبة عليها. الطريق طويل، والجلوس مرهق، لكنها كانت تحاول أن تبتسم. قالت لي بهدوء:

"هناك من يسافر آلاف الكيلومترات من أجل العلاج، ونحن ما زلنا قادرين على الصبر والكفاح".

كانت كلماتها قوية، لكنها كانت تخفي وراءها تعبًا كبيرًا.

وصلنا مع بزوغ الصباح. جلسنا في مكان بسيط لتناول الفطور. تفاصيل صغيرة، لكنها بقيت عالقة في الذاكرة: قهوتي السوداء، قهوتها بالحليب، قطعة خبز، وقليل من الزبدة. بعدها ركبنا الترامواي، وتوجهنا نحو المستشفى.

في المستشفى، كان الانتظار ثقيلًا. دخلت أمي عند الطبيب، قاس ضغطها ووزنها، ثم بدأ يفحص بطنها. أعاد الفحص أكثر من مرة،

وكأن يده تبحث عن إجابة لا يريد أن ينطق بها. ثم قال بهدوء حاول أن يكون مطمئنًا:

"هناك تجمع للماء في البطن. سنحاول إزالته إن شاء الله. وغدًا ستقومين بهذه التحاليل، وسنرى ما يمكن فعله".

في تلك اللحظة، شعرت أن صدري ضاق. أردت أن أبكي، لكنني تماسكت. لم أرد لأمي أن تراني ضعيفة. هي كانت دائمًا القوية، وكنت أعرف أن دوري الآن أن أكون سندًا، حتى وأنا خائفة من الداخل.

عدنا إلى بيتنا القديم. ذلك البيت الذي لم يُبع بعد، وكأنه كان ينتظرنا. نمنا فيه تلك الليلة، وأنا أراقب أمي وهي تحاول أن تنام. دعوت الله في صمت، دعوت أن يكون القادم أرحم، وأن يكون الصبر، رغم ثقله، هو الطريق الذي لا ينكسر.

جزء 7

في تلك الليلة، لم يكن النوم نومًا حقيقيًّا. كان أشبه بمحاولة فاشلة للهروب من القلق. أنا وأمي كنا في بيتنا، لكن أرواحنا كانت معلقة في الغد، في التحاليل، في كلمة سيقولها طبيب، في نتيجة قد تغير كل شيء. وعندما أذن الفجر، نهضنا بهدوء، توضأنا، وصلينا، وكأننا نتمسك بالصلاة كي لا تنهار قلوبنا قبل أوانها.

خرجنا من البيت مع أول ضوء، والبرد يلامس وجوهنا، أما الخوف فكان أعمق من أي برد. توجهنا إلى مركز التحاليل، وسُحب الدم من أمي، ثم بدأ الانتظار. انتظار طويل، مرهق، كأنه امتحان للصبر لا نهاية له. الساعات تمر ببطء قاتل، وكل دقيقة كانت تعيد إلى ذهني ذكرى قديمة حاولت كثيرًا نسيانها. كنت أقاوم أفكاري، أستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، وأقنع نفسي بأن ما يحدث ليس سوى خوف مبالغ فيه، وأن الله لا يكرر الألم بلا حكمة.

حين استلمنا نتائج التحاليل، شعرت أن يدي لم تعد قادرة على حمل الورق. حاولت أن أقرأ الأرقام وحدي. لم أكن أفهم التفاصيل الطبية، لكن بعض القيم غير الطبيعية كانت كافية لتزرع الرعب في قلبي. شعرت بأن الأرض ضاقت بي، وبأن صدري امتلأ بغصة خانقة. لم أبكِ، لا لأنني قوية، بل لأنني كنت أخاف إن بدأت بالبكاء ألا أستطيع التوقف. قلت في داخلي: يا الله، امنحني

قوة تكفي لئلا ترى أمي ضعفي، دعني أكون ثابتة أمامها، ولو كنت من الداخل منهارة.

توجهنا بعدها إلى المصحة. ركبنا الترامواي، وكان مكتظًا، فوقفنا طوال الطريق. وقفت بجانب أمي، أراقب ملامحها بصمت. رأيت التعب في عينيها، ورأيت في الوقت نفسه تلك القوة الغريبة التي لم تفارقها يومًا. فكرت في هشاشة الحياة، في حقيقة الموت، في أن كلنا راحلون يومًا ما، لكن قلبي كان يرفض تلك الفكرة بعناد طفل. قلت في نفسي: لسنا مستعدين الآن، ما زلنا بحاجة إليها، ما زلت أنا بحاجة إلى أمي.

عندما وصلنا، كانت خطواتي ثقيلة، كأنني أسير نحو حكم لا أريد سماعه. دخلنا المصحة، واستقبلتني تلك الرائحة التي أصبحت مألوفة حد الألم؛ رائحة الأدوية، التعقيم، والمرض. جلسنا ننتظر، وكل ثانية في ذلك المكان كانت تضغط على صدري أكثر.

دخلنا إلى الطبيب، نظر إلى التحاليل مطولًا، ثم قال بهدوء قاسٍ إن المرض قد عاد بنسبة سريعة، وإن الأمر يحتاج إلى اجتماع طبي قبل اتخاذ القرار النهائي. طلب من أمي إجراء فحص السكانير، والعودة في اليوم التالي لمعرفة ما سيقرر. في تلك اللحظة، شعرت بأن قلبي انكمش داخل صدري، وبأن الخوف أصبح حقيقة لا فكرة.

خرجنا من المصحة، ونحن نحمل ثقل الخبر في صمت. حاولنا الاتصال بأبي، الذي كان يعمل في البحر. لحسن الحظ كانت التغطية في صالحنا. أخبرناه بكل شيء، فكان صوته ثابتًا رغم

البعد. قال لأمي أن تُجري كل ما يلزم، وأن المال لن يكون عائقًا. توجهنا لإجراء الفحص المطلوب، وعندما عرفنا المبلغ المطلوب، تواصل أبي فورًا مع أحد معارفه، ولم تمضِ دقائق حتى وصلنا المبلغ كاملًا.

أجرت أمي الفحص، ثم عدنا إلى المصحة وسلمنا الوثائق، واتفقنا على العودة في اليوم التالي لمعرفة القرار. عدنا ونحن مثقلتان بكل شيء: بالتعب، بالخوف، وبانتظار لا يشبه أي انتظار. انتظار يعلق القلب بين الرجاء واليأس، بين الدعاء والصمت.

في تلك الليلة، لم أكن ابنة فقط، كنت شاهدة على قوة امرأة، وعلى ضعفي أنا. كنت أحاول أن أبدو ثابتة، بينما في داخلي حرب كاملة. هذا ليس حزنًا عابرًا، بل اعتراف صادق:

أعترف أنني خفت.

أعترف أنني تمنيت لو أستطيع أن أبادل أمي الألم.

وأعترف أنني، رغم كل شيء، ما زلت أؤمن أن الله لا يخذل قلبًا تعلق به بصدق.

الجزء 8

هذه السيدة التي أتحدث عنها اليوم، وأعيد حكاية عمرها، ليست لأنها أمي فقط.

أتحدث عنها لأن بعض النساء لا يعشن الحياة كما يعيشها الآخرون، بل يحملنها على أكتافهن حتى آخر النفس. أمي واحدة من هؤلاء النساء. لم تطلب يومًا الكثير، ولم تشتكِ بصوت عالٍ، لكنها كانت دائمًا هناك، صامتة، قوية، تتحمل أكثر مما يحتمل.

أمي صبرت صبرًا لا يُعلّم ولا يُدرّس. صبرها لم يكن قرارًا، بل فرضًا فرضته عليها الظروف. كانت الرجل والمرأة في آن واحد، مسؤولة عن كل شيء. كانت أمًا تُربي، وأبًا يحمي، وامرأة تخفي تعبها حتى لا نراه. وعندما أصبحت أمًّا، فهمت أخيرًا معنى هذا الحمل الثقيل، وفهمت لماذا كانت عيناها دائمًا متعبتين حتى وهي تبتسم.

الغربة لم ترحمها. كانت قاسية، باردة، لا تعترف بالضعف. عاشت فيها وحدها، بلا دعم، بلا صوت مألوف، بلا يد تمسك بيدها عندما تتعب. كانت تقوم بكل شيء وحدها، وحين تسقط كانت تقوم وحدها أيضًا. لذلك، حين أقول إن كانت فيَّ صفة جميلة فمنها، فكل ما هو جميل فيّ من أمي، فأنا لا أجامل. هذه المرأة كانت مدرسة في الصبر، وفي الإيمان، وفي الصمت الشريف.

أيام الله لا تُقاس بالفرح فقط، ولا بالحزن فقط. كلها تحمل معنى، حتى تلك الأيام التي نشعر فيها أن صدورنا تضيق أكثر من اللازم. مررنا بأيام ظننا فيها أن الألم انتهى، وأن الله كتب لنا الفرج، لكن لنا في ذلك حكمة عندما عاد المرض من جديد. حقًا كانت أقوى وأقسى، لكن حاولنا أن نصبر.

يومها لم نصرخ، لم نبكِ كثيرًا، فقط ساد صمت ثقيل، صمت من يعرف أن القادم أصعب.

عندما أخبرنا أبي بما يحدث، لم يكثر الكلام. في رمشة عين أخبر الصيادين أنها ستكون العودة إلى الميناء لأن الأمر طارئ. اتصل بنا وأخبرنا أنه قادم. كان يعرف أن هناك لحظات لا ينفع فيها الكلام عبر الهاتف، وأن القرار، مهما كان مؤلمًا، لا بد أن يكون حاضرًا معنا.

دخلنا في مرحلة انتظار طويلة، انتظار القرار الطبي. كان علينا أن ننتظر قرارهم، وأن نسمع منهم ما لا نريد سماعه. مر ذلك اليوم ببطء قاتل. تقبلنا الأمر بالرضا، لا لأننا أقوياء، بل لأنه لم يكن هناك خيار آخر. هل نعترض على قضاء الله؟ لا. قبلنا القدر وقلوبنا ترتجف، ونحن نعلم أننا مقبلون على معركة حقيقية، معركة لا يُرفع فيها السلاح، بل يُرفع فيها الصبر.

أبي كان حاضرًا كما لم يكن من قبل. واقف، متماسك، يحاول أن يكون الجدار الذي نتكئ عليه جميعًا. لكنني كنت أرى الخوف في عينيه، ذلك الخوف الذي لا يحتاج إلى كلام. كان يخاف، نعم،

لكنه لم يسمح للخوف أن يظهر. كان يخاف بصمت، مثل الرجال الحقيقيين.

في تلك الليلة، نمنا ونحن متعبون نفسيًّا أكثر من أي وقت مضى. ومع ذلك، كان النوم هادئًا، كأن الله أراد أن يخفف عنا. أكثرنا من الذكر والاستغفار، وكل واحد فينا كان يناجي الله بطريقته. لم نطلب المعجزات، فقط طلبنا الرحمة.

مع أذان الفجر، استيقظنا. توضأنا وصلينا. كانت الصلاة تلك المرة مختلفة، أطول، أثقل، أقرب إلى البكاء منها إلى الدعاء. بعد الصلاة، أعد لنا أبي قهوة. صوت الغلاية، رائحة القهوة، تلك التفاصيل الصغيرة كانت تثبت لنا أننا ما زلنا على قيد الحياة، رغم كل شيء. شربنا القهوة بصمت، لم يكن لدينا ما نقوله.

عندما خرجت أمي، كانت هادئة بشكل يوجع. نظرت إلي، ثم نظرت إلى أبي، كأنها تحفظ وجوهنا في قلبها. قالت بهدوء:

"مهما قالوا، أنا مؤمنة بالله. هذا سيمر، لا تخافوا".

كانت تحاول أن تكون قوية لأجلنا، رغم أن صوتها كان يخونها. دمعة صغيرة تجمعت في عينها، وحاولت ألا تسقط. أنا أدرت وجهي، لأنني لم أكن أتحمل رؤيتها وهي تحاول أن تطمئننا وهي المتعبة.

خرجنا نحو المصحة. الطريق كان طويلًا، رغم أنه لم يتغير. كل شيء كان يبدو عاديًا، والداخل فينا كان مكسورًا. وصلنا، دخلنا، انتظرنا. لحظات الانتظار هناك لا تُحسب بالدقائق، بل بالخوف.

دخلنا إلى مكتب الطبيب. طلب من أبي وأمي الجلوس. بقيت أنا واقفة. لم يكن كرسي إضافي لأن المكتب يحمل فقط كرسيين وكرسي الطبيب.

الطبيب بدأ الكلام ببطء، كأنه يختار الكلمات بعناية. سأل أبي عن حاله، وسأل أمي عن ألمها في الفترة الأخيرة. كانت تجيب بهدوء امرأة تعبت من الشرح.

ثم قال الجملة التي كنا نخشاها:

"ما سنقوله صعب".

توقف قليلًا، ثم أكمل:

"بما أن المرض عاد للمرة الثالثة، وبعد اجتماع مجموعة من كبار الأساتذة، قررنا إجراء عملية جراحية كبيرة، صعبة، ومكلفة، مدتها حوالي ثماني ساعات".

شعرت أن الأرض انسحبت من تحت قدمي. تمسكت بالصمت حتى لا أسقط. الطبيب واصل الشرح: جزء من الأمعاء سيُستأصل، والأمعاء ستخرج إلى خارج البطن عبر فتحة خاصة، وستعيش معها كيسًا مرافقًا لمدة سنتين. كان يتكلم، وأنا كنت أسمع قلبي فقط. كل كلمة كانت تضربني في الداخل.

لم أفهم كل شيء، ولم أستوعب التفاصيل الطبية. الشيء الوحيد الذي كان واضحًا هو أن أمي ستتألم، وأن حياتها ستتغير، وأننا سندخل مرحلة جديدة لا نعرف عنها شيئًا.

وفي تلك اللحظة، وسط كل هذا الخوف، شعرت بشيء واحد فقط:

أن الله حاضر...

وأن امرأة صبرت كل هذا العمر، لا يمكن أن يتركها الله وحدها.

الجزء 9

خرجنا من عيادة الطبيب ونحن نحمل في صدورنا ثقلًا أكبر من قدرتنا على الاحتمال، لكننا كنا نجر خلفنا أملًا صغيرًا، عنيدًا، يرفض أن يموت.

قيل لنا إن العملية كبيرة، معقدة، وتحتاج وقتًا ومالًا وصبرًا طويلًا.

ومع ذلك، لم نرَ فيها نهاية، بل بداية طريق شاق نحو الشفاء.

قلنا إن ما نمر به ليس إلا امتحانًا، وإن الله لا يبتلي إلا من يحب.

بدأنا في إجراءات التغطية الصحية، ملأنا الاستمارات، ودفعنا الشيك، وانتظرنا الرد الذي قد يأتي في أسبوع أو أقل.

حين انتهى كل شيء، نظرت أمي إلينا بابتسامة هادئة، وقالت إنها تريد العودة إلى الناظور حتى يأتي الجواب.

كانت تتحدث وكأن الأمر بسيط، وكأن قلبها لا يخوض معركة صامتة.

اقترح أبي أن نخرج لنتناول الطعام.

لم يكن أحدنا جائعًا، لكننا كنا نبحث عن شيء يثبت لنا أن الحياة ما زالت تسير، رغم الخوف الذي يسكننا.

جلسنا في المطعم، نتأمل وجوه بعضنا بصمت.

كنت أراقب أمي، أفكر: كيف لإنسانة تحمل هذا الكم من الألم أن تبدو بهذه الطمأنينة؟

وفي داخلي، كان الخوف يتمدد:

ماذا لو تغير كل شيء؟

ماذا لو كتب علينا الفراق؟

لم أكن أخشى الموت بقدر ما كنت أخشى الحياة من دون أمي.

كنت أبتلع دموعي، أبتسم لها، وأتناول الطعام فقط حتى لا تشعر أنني أنهار.

بعدها شددنا الرحال إلى محطة الحافلات، عائدين إلى البيت.

انتظرنا حتى موعد الانطلاق.

نمشي قليلًا، نجلس قليلًا، ننهض من جديد، كأن القلق لا يسمح لأجسادنا بالاستقرار.

حين حان الوداع، احتضننا أبي، وركبنا الحافلة.

اخترنا المقاعد الأمامية، ربما لأننا أردنا أن نرى الطريق واضحًا أمامنا، حتى لو كانت أرواحنا ضائعة.

حاولت النوم، لكن الليل كان أطول من قدرتي على الاحتمال.

كلما أغمضت عيني، رأيت أمي كما هي: صابرة، صامتة، قوية.

تساءلت كيف لم نسمع منها يومًا شكوى، وكيف تحملت كل شيء وحدها.

قلت في نفسي إن الله منحها هذا الابتلاء لأنها قادرة، ولكي نتعلم نحن معنى القوة الحقيقية.

وصلنا مع الفجر.

نزلنا قبل المحطة، لأن البيت قريب، ولأننا كنا نشتاق إلى جدرانه.

لفحنا هواء بارد، كأنه يوقظنا من حلم ثقيل.

دخلنا المنزل، وجدنا إخوتي مستيقظين، عيونهم مليئة بالأسئلة التي لم نجد لها جوابًا.

استحممنا، صلينا، وحاولنا أن ننام... لكن النوم لم يكن رحيمًا.

رغم كل شيء، حاولنا أن نعيشه كما اعتدنا، برضا وتسليم.

كانت الامتحانات تقترب، أسبوعًا مصيريًّا، يحتاج تركيزًا واجتهادًا.

أقنعت نفسي أن الدراسة واجب، وأن أمي تريدنا أقوياء، ثابتين.

لكن القدر اختار يوم امتحاني الأول ليكون يوم عملية أمي.

في الليلة التي سبقتها، تحدثنا معها طويلًا.

كانت مطمئنة، واثقة بالله، أقوى منا جميعًا.

قررت أن يرافقها أبي وحده، وقالت لنا إن لكل واحد منا معركته الخاصة.

دخلت أمي غرفة العمليات،

ودخلت أنا قاعة الامتحان.

جلست أمام الورقة البيضاء،

لكن قلبي كان هناك... خلف باب مغلق، حيث الزمن يتوقف، والدعاء لا ينقطع.

حاولت أن أكتب، أن أتذكر، أن أتمسك بأي فكرة... لكن كل شيء تلاشى.

لم يبقَ سوى الدعاء، يخرج من أعماقي بلا ترتيب، بلا كلمات.

انتهى نصف الوقت، سُمح بتسليم الورقة فارغة.

دخلت الحصة الثانية، وخرجت بنفس العجز.

لم أشعر بالهزيمة، بل شعرت أنني كنت في مكان آخر تمامًا.

عدت إلى البيت، والانتظار صار أثقل من التعب.

كل دقيقة تمر كانت سؤالًا بلا جواب.

الهاتف صامت، والقلوب معلقة.

رن الهاتف أخيرًا.

كان صوت أبي يرتجف وهو يقول:

"أمكم فاقت... العملية نجحت".

في تلك اللحظة، سجد قلبي قبل جسدي.

شعرت أن الله رد لنا الروح من جديد.

بكينا، ضحكنا، شكرنا الله، وكل ما فينا يرتعش.

بقيت أمي في الإنعاش ثلاثة أيام.

وحين تحسنت حالتها، نُقلت إلى الغرفة.

لم يكن يُسمح إلا بزيارتين قصيرتين في اليوم.

كان أبي يراها لدقائق، ويعود إلينا محمَّلًا بأخبار ننتظرها بشغف.

كانت كلماته تطمئننا، حتى وإن أخفى عنها خوفه.

في تلك الأيام، تعلمت معنى الانتظار،

وتعلمت أن الصبر ليس ضعفًا،

وأن الإيمان لا يعني غياب الخوف، بل القدرة على العيش معه.

وتعلمت شيئًا آخر...

أن الأم، حين تمرض، لا يمرض جسدها وحده،

بل ترتجف قلوب أبنائها جميعًا.

الجزء 10

مكثت أمي في المستشفى ستة أيام.

ستة أيام كانت كافية لتعلمنا الكثير، وأن الانتظار قد يكون أوجع من الألم نفسه.

قرر الأطباء أخيرًا أن تعود إلى البيت، لترتاح قليلًا، ثم بعد ذلك يُحدد بروتوكول العلاج المناسب لحالتها.

كان القرار واضحًا بالنسبة لي:

يجب أن أكون معها.

أن أترك خلفي كل شيء... الدراسة، التعب، الخوف، وحتى نفسي.

لم أشعر أنني أضحي، بل شعرت أنني أعود إلى مكاني الطبيعي: قرب أمي.

سافرت وحدي من الناظور إلى الدار البيضاء.

كانت المسافة طويلة، لكن الشوق اختصرها.

لم أشعر بالطريق، لم أعد الساعات، لم أنتبه للوجوه من حولي.

كنت أعد اللحظات فقط... اللحظة التي سأراها فيها.

حين وصلت، كان أبي في انتظاري.

ما إن عانقته حتى شعرت بالطمأنينة.

ركبنا السيارة، وساد بيننا صمت دافئ، صمت من يعرف أن الكلام أحيانًا لا يكفي.

دخلت البيت،

فرأيت أمي.

كانت ممددة فوق سرير وُضع في وسط الصالون.

سرير بسيط، لكن أبي هيأه بعناية.

رأيت يديها فيهما كدمات زرقاء، آثار الأدوية التي دخلت من عروقها مباشرة.

رأيت التعب في ملامحها،

والألم الذي لم تكن تحب أن تظهره.

لم أكن مستعدة لرؤيتها هكذا.

أمي التي كانت تتحرك في البيت بهدوء،

التي كانت توقظنا، تطمئن علينا،

صارت هي الآن من تحتاج إلى من يوقظها ويطمئنها.

كانت صدمة،

ثم صدمة أخرى،

لكن لم يكن مسموحًا لي أن أقف طويلًا عند الصدمة.

كانت الممرضة تأتي يوميًا لتنظيف الجرح.

وفي أول يوم حضرت فيه، حرصت أن أكون بجانبها.

راقبت كل تفصيل،

كل حركة يد،

كل تعقيم،

كل طريقة تثبيت.

كان في داخلي ميل خفي للتمريض،

لكن ما دفعني أكثر هو شعوري أن أمي تنتظرها مصاريف أخرى، علاج آخر، لأن كل مجيئها في اليوم تعمل يجب مكافأتها.

قررت منذ تلك اللحظة أن أكون مرافقتها،

أن أتحمل المسؤولية كاملة.

كنت أنا المسؤولة عنها.

وأبي كان يحاول أن يكون سندًا لنا.

كان يطمئن نفسه قبل أن يطمئننا،

ويعد الطعام بيديه،

كأنه يحاول أن يثبت أن البيت ما زال حيًا.

أعد لنا السمك في الفرن،

وأعددت أنا حساءً خفيفًا لأمي.

أكلنا، ثم اقتربت منها برفق،

ساعدتها على النهوض.

كانت خطواتها بطيئة، مترددة، مؤلمة.

كنت أشعر بالألم في كل حركة،

لكنها كانت تقاوم،

تجاهد،

كأنها لا تريد أن تسلم جسدها للضعف.

خطوتان... ثلاث...

ثم عادت إلى السرير،

وكنت أنا أعد ذلك نصرًا صغيرًا.

العملية التي أجرتها غيرت مسار الأمعاء.

صار الجسد يعمل بطريقة مختلفة،

وأصبح الأكل يخرج عندما يصل للمعدة مباشرة، ويخرج من ذلك الثقب الصغير عبر كيس خاص،

يجب تفريغه وتنظيفه باستمرار.

مر اليوم الأول بسلام.

وجاء الليل.

وفي الصباح، جاء يوم جديد...

ومع اليوم الجديد، بدأ الجهاد الحقيقي.

حين جاءت الممرضة، طلبت منها أن أكون أنا من يقوم بكل شيء.

راقبتني، صححت لي بعض التفاصيل،

ثم تركتني أكمل.

كان أول احتكاك مباشر لي مع الجرح صعبًا.

الجرح كان كبيرًا،

نحو ستة سنتيمترات،

الجلد غير موجود،

اللحم ظاهر بوضوح،

وثقب الأمعاء مفتوح،

يخرج منه الأكل.

خفت.

ارتجفت يداي قليلًا.

لكنني تماسكت.

بدأت أنظف،

أعقم،

أغير الكيس،

أقصه،

أثبته.

كنت أسأل أمي في كل مرة:

- هل آلمتك؟

فتجيبني بصوت خافت، لكنه مطمئن:

- لا... ليس كثيرًا.

كنت أتعجب من قوتها،

وأتساءل في داخلي:

كيف سأفعل هذا وحدي؟

كيف سأتحمل رؤية الألم يومًا بعد يوم؟

لكنني لم أُظهر خوفي.

كنت أبتسم،

أمزح أحيانًا،

أحاول أن أجعل الأمر يبدو طبيعيًّا.

حين خرجت الممرضة،

سألني أبي إن كنت قادرة على الاستمرار.

نظرت إليه، وقلت بثبات:

- نعم، سأكمل أنا.

وإن احتجنا لشيء أو لم أفهم، سنستشير فقط.

وبقيت معها خمسة عشر يومًا.

خمسة عشر يومًا كنت فيها:

يدها،

وقوتها،

وعينها الساهرة.

أنا أعطي الدواء،

أنا أراقب الجرح،

أنا أطمئنها حين تتألم،

وأطمئن نفسي حين أضعف.

وفي أحد الأيام، أحضر أبي نتائج التحاليل.

قبل موعد الطبيب، أخذت الورقة.

قرأت... ولم أفهم.

بحثت، ترجمت،

حاولت أن أستوعب لغة لم تكن لغتي.

سألني أبي:

- ماذا فهمت؟

ابتسمت وقلت:

- هذه لغة الأطباء... لا أعرف بالضبط.

احتفظت بنسخة في هاتفي.

وكلما جلست وحدي،

كنت أبحث أكثر،

لأنني لم أعد فقط ابنة تخاف،

بل صرت إنسانة تحاول أن تفهم،

أن تحمي،

أن تكون قوية... حتى وهي خائفة.

في تلك الأيام، تغيرت.

كبرت دون أن أشعر.

تعلمت أن الحب ليس كلمات،

بل تعب صامت،

وسهر طويل،

وخوف نخبئه بابتسامة.

وتعلمت أن الأم،

حين تضعف،

لا تنقص من عظمتها،

بل تكشف كم كانت قوية طوال حياتها.

الجزء 11

في اليوم الموالي، خرجت أنا وأبي إلى موعد الطبيب.

تركنا أمي في البيت.

عند وصولنا إلى المصحة، اتجهنا نحو مكتب السكرتيرة، وسلمناها النتائج.

دخلت أولا وقدمت له نتائج التحاليل.

ثم دخلنا نحن.

كان الطبيب هادئًا، صريحًا، لا يلف ولا يدور.

نظر إلينا وقال:

إن ما تمت إزالته أثناء العملية كان يحمل خلايا سرطانية.

ثم أكمل حديثه:

سنجري اجتماعًا طبيًّا،

سنقرر نوع العلاج المناسب،

وسنختار البروتوكول الأفضل لحالتها.

وأضاف أن الخير قادم بإذن الله.

خرجنا من عنده.

والكلمة الثقيلة ما زالت تسكن صدورنا،

لكن الأمل كان أقوى.

قلنا إن الله معنا،

وإن الشفاء بيده،

وإنه ما دام في القلب نبض، فالدعاء لا ينقطع.

عدنا إلى البيت.

عدت إلى روتيني اليومي:

الدواء،

الأكل،

التنظيف،

العناية...

كأنني أحاول أن أُقنع نفسي بأن الأمور طبيعية.

في تلك الأيام، رغبت أمي في العودة إلى الناظور.

لم يكن قرار هروب،

بل شوقًا.

كانت أيام قليلة تفصلنا عن عيد الأضحى،

وأرادت أن تقضي العيد مع بناتها وولدها، أرادت لمة،

أرادت أن تشعر أنها ما زالت أمًّا وسط بيتها.

كنت أراقبها وهي تحاول الحركة،

تحاول الضحك،

تحاول أن تبدو بخير،

بينما جسدها كان يضعف يومًا بعد يوم.

كنت أحاول تصوير فيديوهات لأبي،

ليراها كيف تركض في البيت،

وأنا أتبعها أنا وأخي،

وكأننا نتمسك بالحياة من أطرافها الصغيرة.

رغم ضعفها،

كنت أشعر أنها تقترب منا أكثر،

وكأن المرض جعلنا نحب بعضنا بصدق أكبر،

بعمق لم نعرفه من قبل.

اقترب موعد الطبيب من جديد.

كان علينا أن نعرف:

هل جسدها قادر على تحمل مرحلة أخرى من المعاناة؟

هل تستطيع العودة إلى العلاج الكيميائي؟

زرنا طبيبين.

الأول هو الذي أجرى العملية.

فحص الجرح،

نظر إليها بابتسامة مطمئنة،

وقال لها:

أنت بخير،

الجرح في تحسن،

حاولي فقط أن تأكلي جيدًا،

أن تستعيدي قوتك،

لأنك فقدت الكثير من الوزن.

كلماته كانت كبلسم.

خرجنا من عنده ونحن نحمل أملًا صغيرًا جديدًا.

توجهنا بعدها إلى مصحة أخرى.

وزرنا طبيبًا آخر،

طبيب العلاج الكيماوي.

فحصها بدوره،

ثم قال بهدوء:

بعد العيد مباشرة،

سنبدأ علاجًا آخر،

بروتوكولًا جديدًا،

وقد يكون هذا هو الطريق الأنسب.

أغلق الملف،

وقال إن الأمور ما زالت تحت السيطرة،

وإنه لا داعي للخوف المسبق.

خرجنا.

وقبل أن نبتعد،

نادتني السكرتيرة.

قالت لي إن عليّ النزول إلى الإدارة.

أعطتني أوراقًا،

وشرحت لي أن عليّ إعداد الملف،

وأن التغطية الصحية ستتولى جزءًا من المصاريف بعد العيد.

نزلت.

جلست أمام الموظفة.

بدأت تشرح الأرقام:

كم تكلفة كل حصة،

وكم ستتكفل به التغطية،

وكم سيتبقى علينا دفعه.

كانت الأرقام كبيرة.

لكنني... لم أسمعها حقًّا.

كنت أعرف شيئًا واحدًا فقط:

أن أبي، مهما كان الثمن، سيدفعه.

ليس لأن المال لا يعنيه،

بل لأن صحة أمي تعني له الحياة.

كان يقول لها دائمًا، بنبرة نصف مازحة ونصف جادة:

"أنا اللي غادي نسبقك".

كنت أسمع كلماته،

وأشعر أن الحب،

حين يكون صادقًا،

يصبح أقوى من المرض،

وأغلى من كل الأرقام.

خرجت من الإدارة،

حملت الأوراق بيدي،

لكن الذي حملني حقًّا...

كان الأمل.

الجـزء 12

ركبنا الترامواي متجهين نحو البيت.

جلست بجانب أمي، قريبًا منها أكثر مما يحتاج الجسد، وكأن مجرد قربنا يحميها من أي سوء محتمل.

كنت أراقب كل شيء فيها: أنفاسها، حركة يديها، ارتخاء كتفيها، وحتى صمتها.

سألتها بصوت منخفض، كأني أخشى أن أسمع جوابًا غير المتوقع:

- ماما... هل أنت بخير؟

ابتسمت ابتسامة ضعيفة، ابتسامة أم تعرف أن ابنتها خائفة، فتختار أن تطمئنها حتى ولو كان قلبها مثقلًا بالألم.

قالت بهدوء:

- أنا في تحسن... كل يوم أكون أفضل.

هززت رأسي، وكأنني صدقتها،

لكن قلبي لم يهدأ.

كنت أخاف أن يكون تحسنها مجرد محاولة لإخفاء ضعفها،

أن تكون قوية من أجلنا فقط، بينما في داخلها الألم لم يخف.

كان الترامواي شبه فارغ.

الهدوء كان يخيفني أكثر من الضوضاء.

المدينة تمر من خلف الزجاج ببطء، وكأنها تعرف ثقلي في تلك اللحظة.

كل شيء حولنا ساكن، إلا قلبي، الذي كان يطن من الخوف.

وصلنا أخيرًا إلى البيت.

فتحنا الباب ودخلنا.

كل شيء كان مرتبًا كما تركناه،

لكنني شعرت أن البيت نفسه خائف معنا.

الجدران كانت تستمع إلى أنفاسنا، كأنها تعلم ما جلبناه معها من قلق.

عاد الروتين، أو حاولنا أن نقنع أنفسنا بذلك.

أبي خرج إلى عمله،

وأنا وأمي بقينا وحدنا في البيت،

معنا الله...

هذه الجملة نكررها كثيرًا، "معنا الله"، لأن الخوف يجعل الإنسان يتشبث بالكلمات.

كنت أعد لها الدواء، أراقب مواعيده، ألاحظ أي تغير في وجهها أو صوتها.

كنت أخاف من كل حركة، من كل نفس، من كل لحظة سكون.

كنا نتحدث يوميًا مع أخواتي.

إحداهن منشغلة بدراستها،

وأخرى بعملها،

وتوأمي كانت متزوجة في بيتها.

كل واحدة تحاول أن تبقى قوية،

حتى لا نرى ضعفها.

وأخي...

كان أكثرنا وجعًا بصمته.

هو الأصغر، وكانت الحياة عليه أقسى،

كان في مرحلة المراهقة، كتومًا ومنغلقًا، يحمل أشياء لا يقولها.

لا يخبرنا بما يؤلمه، ولا بما يخيفه،

وفي داخله خوف فقدان أمي.

كانت أمي تخاف عليه كثيرًا، خوف أم تشعر أن ابنها ما زال صغيرًا، رغم أنه يكبر أمامها.

كنت أرى ذلك الخوف في عينيها، وأعرف أنه يشبه الخوف الذي يسكنني.

جلسنا ذات مساء في الصالون،

الهدوء كان ثقيلًا،

كأن كل واحد منا ينتظر الآخر ليبوح بما يختبئ في قلبه.

وفجأة، قالت أمي، وكأنها تحاول أن تتخطى خوفها قبل أن يخترقنا:

- أنا بخير.

- العيد سيكون في الناظور، لا هنا.

- أريد أن أرى العائلة... الكبيرة والصغيرة...

- أريد أن أرى والدي.

نظرت إليها، وفهمت أن السفر ليس مجرد رغبة، بل حاجة إلى طمأنينة، لتذكر الحياة وسط من يحبونها.

العيد كان قريبًا، والقلوب كانت متعبة، فقررنا العودة.

شددنا الرحال.

طريق حفظناه عن ظهر قلب، كم مرة سلكناه؟ كم مرة ركبنا نفس الحافلة؟ كم مرة جلسنا في نفس المقاعد؟

حفظنا بعض الوجوه، وحفظونا.

لكن هذه المرة، كان الطريق أثقل.

ليس بالطول، بل بالخوف الذي يرافق كل خطوة.

كنت أنظر إلى أمي من نافذة الحافلة،

كانت صامتة،

كأنها تحفظ كل شيء في قلبها،

تخشى أن تفقده.

كنت أدعو في نفسي، بلا صوت، بلا كلمات:

يا رب... اجعلها بخير.

اجعل هذا الخوف مجرد فكرة... لا واقعًا.

في تلك الرحلة، فهمت أن الخوف لا يحتاج إلى صراخ أو دموع...

الجزء 13

وصلنا إلى بيتنا، فوجدنا إخوتي في انتظارنا. كانت أمي تسير ببطء شديد، جسدها منهك، وروحها تحاول أن تخفي ما به الجسد من تعب. كنا نمسك بها برفق، وكانت تحاول صعود الدرج بثبات.

دخلت البيت، بدلت ملابسها، توضأت، صلت، ثم جلست في مكانها المعتاد، ذلك الركن الصغير الذي صار شاهدًا على صبرها الطويل، ورفيقًا لوحدتها الصامتة.

كان العيد يفصلنا عنه ثلاثة أيام. وقد كنا قد أنهينا استعداداتنا، اشترينا ما يلزم من أغراض، وجهزنا الملابس الجديدة، كما اعتدنا منذ صغرنا شراء ملابس جديدة مرتين في السنة: مرة في عيد الفطر، ومرة في عيد الأضحى. لم يكن الفرح كاملًا، فالنفس مثقلة، والقلوب متعبة، وكل واحد منا يحمل داخله خوفًا لا يقال. ومع ذلك، كان تعظيم شعائر الله حاضرًا في قلوبنا، يمنحنا شيئًا من السكينة، ويشعرنا أن الطمأنينة قد تأتي أحيانًا في أصعب الظروف.

في يوم عرفة، شددنا الرحال إلى قريتنا بني شيكر "يَاتِفْرَانْ"، التي تبعد خمسة وأربعين كيلومترًا عن الناظور. تلك القرية لم تكن مجرد مكان نذهب إليه، بل كانت ذاكرة، وجذورًا، وملجأً نلوذ به كلما ضاق بنا العالم. هناك نعيد ترتيب قلوبنا، ونستقبل العيد كما اعتدنا منذ الطفولة. في ذلك اليوم، وصل أبي من الدار البيضاء

مباشرة إلى القرية، وكأن المسافة الطويلة لم تكن شيئًا أمام شوقه لأن يكون بيننا في هذه اللحظات.

في المساء، جاء الأحباب للاطمئنان علينا، جلسوا قليلًا، تبادلوا الدعاء والكلمات الطيبة، ثم انصرفوا بهدوء. بقي معنا بنات عمي وعمتي وإخوتي، واجتمعنا لنقش الحناء. لم تكن الحناء مجرد زينة، بل كانت محاولة خجولة لزرع الفرح في قلوب مثقلة، وإعلانًا صامتًا بأن الغد عيد، مهما كان الألم حاضرًا.

طلع فجر العيد، وتعالت تكبيراته من المسجد، فارتجفت لها القلوب قبل الجدران. تلك التكبيرات كانت أشبه بنداء من السماء، يذكرنا بأن الله معنا، وأن بعد كل ضيق فرجًا. اغتسل أبي، لبس عباءته، تعطر، ثم خرج إلى الصلاة، يحمل في قلبه دعاءً طويلًا لا يسمعه إلا الله.

أما نحن، فتوزعنا على الأعمال، كل حسب طاقته: من أعد الفطور، ومن هيأ الكسكس، ومن رتب البيت. كانت أجواء العيد حاضرة بقوة، رغم التعب والقلق. وكانت أمي جالسة في مكانها، متكئة. لقد استنزفت العملية الجراحية كل ما بقي فيها من قوة، حتى صارت الحركة ثقلًا عليها. لم تكن تحب تناول دواء الحديد، وكنت أخشى عليها، فأذيبه لها في كأس دون أن تشعر، بدافع الخوف لا الخداع، وبحب لا يعرف سوى القلق.

عاد أبي من المسجد، وتبادلنا التهاني، الصغير قبل الكبير. في ذلك اليوم، شعرت أن القرية كلها جاءت لتشاركنا العيد. الجميع كان يعلم بمرض أمي، فجاؤوا جماعات، يواسون، يدعون، يبتسمون في

وجوهنا ليخففوا عنا. لم يكن ذلك اليوم عيدًا لنا وحدنا، بل كان امتحانًا للرحمة والتكافل.

جاء وقت ذبح الأضحية، قال أبي: "نبدأ على بركة الله". ذبحنا على سطح المنزل، وتعاون الجميع، إلا أنا، فقد عجزت عن المشاركة، واكتفيت بالتنظيم من بعيد. تولى أبي وأخي الذبح والسلخ، وغسل الكرشة وتنظيفها. أما أنا، فانشغلت بإعداد المجمر لشواء الكبدة، حتى أقدمها لأمي لعلها تقوى قليلًا.

جلسنا نأكل، وحاولت أمي أن تتناول بعض الكبدة، وبحمد الله أكلت شيئًا يسيرًا. كان ذلك القليل يعني لنا الكثير، كأنه انتصار صغير على المرض. بعد ذلك، عاد الجميع لإكمال العمل، فواصل أبي التنقية، وأعطى لإخوتي إتمام الغسل والتنظيف. كنت أتنقل بين مساعدتهم حينًا، والذهاب للاطمئنان على أمي حينًا آخر، أراقب أنفاسها، وأخفي خوفي خلف ابتسامة مصطنعة.

بعد أن انتهى كل شيء، أعدت أختي الغداء، وتعاونا جميعًا في ترتيب المكان وتنظيفه. مر الوقت سريعًا، وحين حان وقت الغداء تناولناه على عجل، ثم بدأنا نستعد لاستقبال الضيوف: جدي وجدتي، وخالي وأبناؤه، وخالتي وأبناؤها، وخالتي الأخرى. كانت تلك أول مرة يرون فيها أمي بعد العملية الجراحية الكبرى، وكنا نخشى نظرات القلق في أعينهم أكثر مما نخشى كلماتهم.

رغم التعب الذي كان واضحًا على ملامحها، ورغم أن الطعام كان يمر بصعوبة، وكانت تأكله كأنها تجبر نفسها عليه، إلا أنها تماسكت. جلست مستقيمة قدر ما استطاعت، ورفعت رأسها،

وارتسمت على شفتيها ابتسامة عريضة، حتى لا تشعر والدتها بضعفها، وحتى لا تقلق قلوب من حولها بحزنها. كلما سئلت عن حالها، كانت تقول بصوت هادئ:

أنا بخير.

كلمتان فقط، لكنهما كانتا تختصران بحرًا من الألم، وجبلًا من الصبر، وقلبًا تعود أن يتحمل الوجع بصمت.

الجـزء 14

جاءت أختي هي وابنها الصغير، جلسوا معنا، وملؤوا البيت بشيء من الحياة، ثم رحلوا. بقينا معًا ثلاثة أيام، نحاول أن نعيش العيد قدر المستطاع. كانت أمي تنهض بصعوبة، وتجلس بصعوبة أكبر، كأن جسدها لم يعد يملك الطاقة حتى لحملها.

بعد انتهاء أيام العيد، قررنا العودة إلى بيتنا في الناظور، لنعود إلى حياتنا العادية: من يعمل يعود إلى عمله، ومن يدرس يعود إلى دراسته، ومن ينتظره امتحان يستعد له. أما أنا، فكنت مقبلة على امتحانات الدورة الاستدراكية. كان عليّ أن أجتاز ست وحدات دراسية، لم أتمكن من اجتياز أيٍّ منها في الدورة العادية. لكن الله لم يخذلني، أعانني، وفتح لي أبواب الحفظ والفهم، فاجتزت جميع المواد في الدورة الاستدراكية وبنقاط جيدة. حينها أدركت يقينًا أن دعاء الله لا يضيع، وأن دعاء أمي كان يرافقني في كل لحظة، حتى وأنا لا أسمعه.

ومع مرور الأيام، بدأت صحة أمي تتحسن قليلًا، تحسنًا خجولًا، لكنه كان كافيًا ليزرع فينا الأمل من جديد. قررنا العودة إلى الدار البيضاء لمعرفة البروتوكول العلاجي الذي ستتبعه. قبل الذهاب، أجرت بعض التحاليل، هي التي ستشهد لنا بالسفر أم لا. خرجت التحاليل، وكانت لا بأس بها. كريات الدم كانت متوسطة، والصفائح أيضًا كانت متوسطة بالمقارنة مع التحاليل قبل. شددنا

الرحال، وكلنا يقين أن الشفاء بيد الله، وأن الأمل لا يجوز أن ينقطع أبدًا. لم نعرف يومًا معنى اليأس، فدعاؤنا كان حاضرًا في كل سجدة، بل حتى خارج السجود؛ ونحن جلوس، واقفون، في الطريق، في الصمت، وفي الخوف.

كنا نأخذ بالأسباب كما يُطلب منا: دواء، علاج كيميائي، كل ما يُقال لنا: «هذا ضروري» كنا نقبله دون تردد. وكعادتنا، توجهنا إلى المصحة. دخلنا، مررنا على السكرتارية، جلسنا في قاعة الانتظار، كما في كل مرة. تأملنا وجوه المرضى، صمتهم، نظراتهم، انتظارهم الطويل، الذي يشبه انتظارنا. نادتنا السكرتيرة، فدخلنا إلى الطبيب.

كالعادة، سأل عن العيد، كيف مر، هل أكلت أمي الكبدة، هل شعرت بتحسن، كيف حال الكيس الذي أُجري لها، هل يعمل جيدًا، هل تأكل جيدًا. ثم طلب منها أن تنهض للفحص. قاس ضغطها، فحص الجرح بعناية، ثم قرر أن تبدأ جلسات العلاج الكيميائي بمعدل مرتين في الأسبوع. وأوضح أن الأمر مشروط بإجراء تحاليل الدم والصفائح قبل كل جلسة؛ فإن كانت النتائج جيدة أُجريت الجلسة، وإن لم تكن كذلك أُجلت إلى الأسبوع المقبل.

طلب منا الانتظار في قاعة الانتظار ريثما يتم تجهيز الدواء ومكان الجلسة. انتظرنا قرابة ساعة، ثم نادوها. دخلت، وبقيت أنا أراقب من خلف الباب، أتابع كل حركة، كل تفصيلة، وكل إبرة. كنت أدعو الله في قلبي أن يخفف عنها ألم الوخز، وألم الدواء، وألم كل ما لا تستطيع أن تقوله. ثم عدت إلى مقعدي في قاعة الانتظار.

هناك تبدأ الحكايات. تسمع قصص المرضى، صبرهم، آلامهم. ترى حالات أصعب بكثير من حالة أمي: مرضى تشوهت أجسادهم، آخرون فقدوا أطرافهم، من شوه المرض أعناقهم وأيديهم وأرجلهم. ترى من شُفي ثم عاد إليه المرض بعد تسع سنوات. ترى أطفالًا صغارًا، وشبابًا في عمر الزهور. أمام كل هذا، لا تملك إلا أن تقول: الحمد لله، والشكر لله.

لم أكن أشارك أحدًا ألمي بالكلام، لكنني كنت أشاركهم الصمت، ونظرات التفهم، والدعاء الصادق. هناك نساء تخلى عنهن أزواجهن، وهناك رجال تخلت عنهم زوجاتهم، وتسمع قصصًا تهز القلب، فتدرك أن البلاء ليس في المرض وحده، بل فيمن يختار أن يرحل وقت الشدة.

عندها فقط، ترى النعم التي لا نراها عادة. تدرك أن الله أنعم علينا بنعمة عظيمة: أب لم يتخل، لم يمل، ولم يتراجع. أبي الذي لم يسمح يومًا للألم أن يهزم أمي، رغم سنوات المعاناة، ورغم التكاليف الباهظة، ورغم التعب الجسدي والنفسي. ضحى بالغالي والنفيس، لا لشيء، إلا ليمنحها فرصة للحياة.

هناك، في قاعة الانتظار، فهمت معنى قوله تعالى:

«وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها».

فبعض النعم لا نراها إلا حين نرى فقدانها عند غيرنا، وبعضها لا نعرف قيمتها إلا في أوقات الشدة.

وهكذا، بين خوف وأمل، وبين دعاء وصبر، كنا نمضي...

نؤمن أن الله لا يكسر قلبًا إلا ليجبره، ولا يؤخر الشفاء إلا لحكمة، وأن بعد هذا العسر يكون يسر.

الجزء 15

مر بروتوكول العلاج في هدوء.

لكن خلف هذا الهدوء كانت هناك ساعات ثقيلة لا يراها إلا من عاشها.

ساعتان من الدواء يتسللان إلى الجسد عبر فتحة زُرعت في العنق،

وساعتان من الألم الصامت،

وساعتان من الانتظار الذي ينهك الروح قبل الجسد.

ومع ذلك... لم تتذمر أمي يومًا.

لم تقل إنها تعبت،

ولم تسأل: لماذا هي بالضبط؟

بل فعلت المستحيل من أجلنا،

تشبثت بالحياة لأجل أن تبقى معنا،

وجمعت القوة من حيث لا قوة.

تحملت السفر.

وتحملت التعب.

وقبلت كل الأسباب...

ما كان في صالحها، وما لم يكن،

فقط لأنها كانت تؤمن أن البقاء معنا يستحق كل هذا العناء.

في اليوم نفسه كنا نسافر ونعود،

ليس لأننا لا نملك مكانًا نقيم فيه،

بل لأن الغربة لم تكن تشبه أمي،

والانتظار لم يكن يليق بها.

كانت تريد أن تعيش بيننا،

بألمها، بتعبها، بضعفها وقوتها معًا.

كانت تخرج من حصة العلاج الكيميائي،

والإرهاق مرسوم على ملامحها،

والتعب واضح في عينيها،

لكنها تبتسم وتقول بثبات:

«أنا بخير... أستطيع العودة، الطريق لا يخيفني».

وأمي...

إن قالت كلمة،

كان من المستحيل أن تغير رأيها.

كان الوقت يقترب من الخامسة مساء.

دخلنا المطعم لنأكل شيئًا خفيفًا،

بحثنا عن مكان نصلي فيه،

ثم توجهنا نحو المحطة ننتظر الحافلة.

جاءت الحافلة نفسها التي سافرنا بها البارحة،

وكانت الوجوه مألوفة:

وجوه أنهكها العلاج،

وجوه جاءت بحثًا عن دواء،

وأخرى عن لقمة عيش.

كل واحد يحمل حكايته،

لكن الطريق واحد...

والتعب واحد.

جلسنا في أماكننا المعتادة،

وكنت لا أتوقف عن السؤال:

هل تشعرين بالغثيان؟

هل تريدين شرب الماء؟

فتجيبني دائمًا بنفس الجملة الهادئة:

«لا يا ابنتي، أنا بخير».

ما إن انطلقت الحافلة،

حتى غلبني التعب.

اعتدت أن أنام قليلًا ثم أستيقظ،

لكن في تلك المرة،

كان الإرهاق أقوى مني.

نمت نومًا عميقًا،

واستيقظت على صوت المنادي:

«العروي... العروي... من سينزل؟»

كان يفصلنا عن الوصول نحو ساعة.

نزلنا من الحافلة.

هواء الصباح كان باردًا،

والمدينة نائمة،

لا سيارات،

لا سيارات أجرة،

فقط صمت طويل،

وكلاب تجوب المكان.

وصلنا إلى البيت،

استحممنا بماء دافئ،

ثم عدنا إلى النوم حتى الصباح.

ومع بزوغ يوم جديد،

يبدأ الروتين من جديد:

طعام صحي،

غداء محسوب،

حذر في كل شيء،

حتى تستطيع أمي أن تواصل حصص العلاج في وقتها.

كانت تجري التحاليل قبل يوم في الناظور،

وترسل النتائج إلى السكرتيرة،

وهي من تقرر:

هل تأتي أمي للعلاج؟

أم تؤجل الحصة؟

الحصة الثانية والثالثة مرتا بسلام،

نذهب لتلقي الدواء،

وفي اليوم نفسه نعود.

أما الحصة الرابعة،

فكانت تؤجل إلى الأسبوع الموالي.

حصص تُؤخذ، وأخرى تُؤجل،

لكن أمي كانت تحاول أن تعيش حياتها بشكل عادي:

تخرج وحدها،

تشتري ما يعجبها من الخضر والفواكه،

وتفرح بأشياء بسيطة...

كنا أحيانًا نسافر إلى قريتنا عند جدتي،

نبقى يومين، ثم نعود،

واستمر هذا الحال قرابة ثمانية أشهر.

ثم جاء الصيف...

بحرارته القاسية،

وأصبح ذلك الكيس عبئًا مضاعفًا.

كنا نغيره كل يومين، لكن مع هذه الحرارة كنا نغيره كل يوم،

وأحيانًا كل خمس ساعات.

كنت أتركه قليلًا،

ثم أضع لها مرهم الأطفال الذي وصفه الطبيب،

وأبقى بجانبها...

أراقب ألمها بصمت،

وأحاول أن أكون سندًا

حين تعجز الكلمات.

كم مرة كنت في الجامعة،

فتتصل بي وتقول بصوت متعب:

«ابنتي، تعالي... الكيس انفتح،

والجلد احترق ولم يعد يثبت،

وأحتاجك بجانبي».

فأترك كل شيء،

وأركب الحافلة،

وأذهب إليها.

كان جسدها يتألم،

والحرارة تزيد الجرح اشتعالًا،

والكيس لا يثبت إلا بلاصق خاص.

لكن قلبها...

كان أقوى من كل ذلك.

اختارني الله من بين إخوتي

لأعيش معها هذه الرحلة القاسية،

لأشهد صبرها،

وقوتها،

وصمتها الجميل.

لم تكن أمي مريضة فقط،

كانت معلمة، تعلمني كيف أواجه الألم دون شكوى،

وكيف أحب الحياة حتى في أقسى لحظاتها.

الجـزء 16

مر شهران من الصيف، وكانا محملين بالألم. ألم ثقيل، متواصل، لا يهدأ إلا حين تلجأ أمي إلى القرآن. كلما اشتد الوجع، كانت تطفئه بالآيات، تحاول أن ترفع المصحف بيد أنهكها المرض، تقرأ وتدعو، تكثر من الدعاء، كأنها تتشبث بالله وحده بعدما خذلها الجسد. ومع الأيام، بدأت تشعر بشيء من التحسن، كأن الأمور أخذت تبرد رويدًا رويدًا، وكأن الحرارة التي كانت تلتهمها من الداخل بدأت تنخفض.

كانت أيامنا تمضي بين ذهاب وإياب، بين أمل صغير وخوف كبير. كنا نذهب إلى حصص العلاج ونعود، نعيش على وتيرة الانتظار. وجاء شهر شتنبر، فعدنا إلى الدراسة من جديد، بدأنا سنة جامعية جديدة، سجلنا المواد التي كان مسموحًا لنا بها، ثماني مواد كاملة، وبدأت سميسترًا جديدًا في سنتي الأخيرة لنيل الإجازة. كنت أحاول أن أتشبث بالحياة كما هي، رغم أن المرض كان حاضرًا في كل التفاصيل.

في تلك الفترة، عرضت علي فكرة لم تأت صدفة. جمعية فاطمة الفهرية اقترحت علي، في معهد ولاد براهم حيث كنا نحفظ القرآن، أن أنضم إليهم، أقدم لهم قصص الأنبياء كل يوم أحد. أعجبتني الفكرة من أول وهلة، شعرت أنها نور في وسط العتمة، فدخلت معهم. كل يوم أحد كنت أذهب إلى الأطفال، أجلس

بينهم، أحكي لهم القصص، أراقب عيونهم البريئة وهي تتعلق بالكلمة، وأشعر أن شيئًا في داخلي يلتئم.

وبالتوازي مع ذلك، كنت أعمل كثيرًا. أجهز الشموع المزينة، وأعد الكؤوس التي تحمل أسماء بخط مزخرف. كان وقتي ممتلئًا عن آخره، وربما كان ذلك لطفًا من الله، لأن الانشغال أنقذني من الغرق في التفكير والحزن. كان وقتي كله تقريبًا لأمي، ومع ذلك، كنت أجد نفسي أفعل كل هذا في أوقات أخرى.

جاء شهر رمضان، وصامت أمي الشهر كله، رغم التعب والإرهاق. كانت حصص العلاج الكيميائي متوقفة، وكانت تشعر بضعف شديد. في الأيام التسعة الأخيرة، لم تعد قادرة على الصيام، ضعفت قواها تمامًا، وبدأت تأكل. مر عيد الفطر عاديًا، بلا مظاهر فرح حقيقية، ثم عدنا إلى روتيننا المعتاد: أسبوع نسافر، وأسبوع نؤجل فيه العلاج. لكن هذه المرة، عاد العلاج الكيميائي بشكل مختلف. كانت تبدو قوية في ظاهرها، إلا أن صحتها لم تكن بخير، وقدرتها كانت ضعيفة جدًّا.

الأيام كانت تمضي، وأنا بين الذهاب والإياب، إلى أن جاء يوم خطبتي. في ذلك الوقت، كانت مناعة أمي تنخفض يومًا بعد يوم. وفجأة، في يوم واحد، تم كل شيء: الخطبة، والقبول، وكل التفاصيل جاءت على حين غفلة. كانت أم خطيبي أول وآخر مرة ترى فيها أمي، لقاء قصير، لكنه محفور في القلب.

اقترب عيد الأضحى، وسبحان الله، انخفضت مناعة أمي أكثر. لم نكن نعرف أحدًا في الناظور، لا طبيبًا ولا مصحة، إلا خطيبي،

الذي كانت له علاقات في المجال الصحي. اتصلت به وأخبرته بما يحدث، وفجأة تكفل بكل شيء. هناك فقط أدركت أن الله أرسله إلي خصيصًا لهذا الموقف. حمل أمي إلى المصحة، تكفل بالدم، وتكفل بكل التفاصيل، دون تردد.

نامت أمي ليلتين في المصحة ثم خرجت. كانت جدتي تقول لها بإيمان بسيط:

"اذهبي واشربي حليب الناقة، كثير من الناس شفوا به".

وكان جدي يقطع ساعة من الطريق ليأخذها ويعيدها، متعبًا لكنه صابر. وبعد ذلك، أصبح خطيبي هو من يتكفل بإيصالها وإرجاعها، لأن الطريق كان طويلًا على جدي.

حل عيد الأضحى، فعدنا إلى قريتنا لنقضي العيد كما في السنة الماضية. لكن أمي كانت قد فقدت وزنًا كبيرًا، ومناعتها انخفضت بشكل مخيف. مر يوم العيد، لكنه مر في حالة لا تشبه الأعياد. أدينا الشعائر، نعم، لكن الحزن كان سيد المكان. طبيب القرية، وهو معروف، فحصها وقال لنا: "يجب أن تعود إلى طبيبها في الدار البيضاء". كانت تلك الجملة كفيلة بأن تزرع الرعب في قلوبنا.

بحثنا عن طائرة من العروي، فوجدنا أنها لا تقلع إلا مرتين في الأسبوع. بقينا نستغيث، نسأل: ماذا نفعل؟ ماذا نفعل؟ إلى أن ظهر فرج من حيث لا نحتسب. ابن خالة أمي تكفل بنا، قرر أن يوصلنا بسيارته. في رمشة عين، وجدنا أنفسنا نستعد للرحيل، بلا

ملابس، بلا تجهيز، بلا شيء. في تلك اللحظة، لم يكن يهمنا شيء، كان علينا فقط أن ننقذ الروح.

ركبنا السيارة: أنا، وأبي، وأمي، وأخي، وهو سائقنا. في تلك اللحظة، كانت ملامح أمي تظهر على أنها تودعنا. لم تكن تقولها لي مباشرة، لكنها كانت تودع إخوتي بطريقتها، كلامها كان وداعًا صامتًا، والدمعة كانت محبوسة في عينيها، ترفض النزول.

كنت أشعر بضعفي الشديد في تلك اللحظات، لكنني كنت أقول في داخلي: نحن بين يدي الله. انطلقنا في الطريق، وكل مرة أسألها: هل هي بخير؟!

كانت ضعيفة... ضعيفة جدًّا، لكننا كنا نمضي، لأن التوقف لم يكن خيارًا.

الجزء 17

انطلقنا من الناظور بعد الزوال، وكانت الساعة تشير إلى الثانية تقريبًا، لكن الزمن في تلك اللحظة لم يكن يقاس بالساعات. كان يقاس بالخوف. الخوف الذي يثقل الصدر حتى يصير التنفس جهدًا. ركبنا السيارة، وكل واحد منا حمل صمته معه. الطريق كان طويلًا، ممتدًّا بلا نهاية، وكأننا نسير داخل دعاء لا نعرف متى يُستجاب.

لم يكن هناك حديث يذكر. الصمت كان أثقل من الكلام. فقط بين حين وآخر، كنت ألتفت إليها، أراقب وجهها، وأسأل بصوت أحاول أن أجعله ثابتًا:

"هل أنت بخير؟"

كانت تجيب أحيانًا بإيماءة خفيفة، وأحيانًا بصوت متعب، يكاد لا يُسمع. كنت أشعر بضعفي كل كيلومتر أبتعده عن الناظور. ضعيفة لدرجة أن مجرد سؤال بسيط يوجه إلي عن حالي كان كفيلًا بأن يفجر البكاء في داخلي. كنت أحبس دموعي بقوة، أخاف إن بدأت أن لا أستطيع التوقف.

أبي كان قليل الكلام. يتبادل جملا قصيرة مع ابن خالة أمي، جملا بلا روح، فقط لكسر الصمت. الحزن كان واضحًا على وجهه. رأيت أبي في تلك الرحلة كما لم أره من قبل؛ ليس الأب القوي، بل

طفلًا خائفًا. كان يعرف، كما نعرف جميعًا، أن إن لم تكن أمي بخير، فهو أيضًا لن يكون بخير. كان الألم يجعله صغيرًا، هشًّا، لكنه يحاول أن لا يظهر ذلك.

الطريق كان يمشي بنا ونحن نمشي به. الشمس بدأت تميل، والسماء تغير لونها، وأنا كنت أراقب المناظر تمر دون أن أراها حقًّا. قلبي كان في مكان آخر. كان معلقًا بخوف واحد.

وصلنا إلى الدار البيضاء مع التاسعة ليلًا. المدينة كانت مستيقظة، أضواؤها كثيرة، لكنني لم أر فيها إلا التعب. لم نتوقف، لم نسأل، لم نبحث عن شيء. اتجهنا مباشرة إلى المصحة. أدخلوها بسرعة، وضعوها على السرير، ركبوا لها المصل عبر الوريد. كنت أراقب الإبرة تدخل جسدها، وكأنها تدخل جسدي أنا. طلبوا منا أن نخرج، قالوا إن المرضى بحاجة إلى الراحة.

خرجنا، لكن قلبي بقي هناك، مع السرير الأبيض، مع يدها التي تركتها دون أن أمسكها بما يكفي.

توجهنا إلى البيت. صعدت السلالم ببطء، كأن كل درجة تحمل سؤالًا بلا جواب. دخلت الغرفة، بينما خرج أبي وابن خالة أمي ليحضرا الطعام. توضأت، وغسلت وجهي بالماء، لعلي أغسل معه بعض الخوف. صليت. وحين سجدت، لم أجد كلمات. وجدت دموعًا فقط. بكيت ذلك البكاء الذي كنت أخزنه في الطريق، بكاء لم يكن صاخبًا، بل كان موجعًا، يخرج بصمت، يبلل السجادة أكثر مما يبلل الخدين. قلت لله كل شيء دون أن أنطق. قلت له خوفي، عجزي، ضعفي، وتعلقي بها.

عاد أبي يحمل لي ساندويتشًا ومشروبًا غازيًّا. نظر إليّ بنظرة مليئة بالشفقة، كأنه يريد أن يطعمني الحياة لا الطعام. قلت له إنني لا أستطيع. دخلت غرفتي، تمددت، وتركت الجسد ينهار. كل ما كنت أريده هو أن يأتي الصباح، أن أراها، أن أسمع صوتها.

كانت تلك الليلة ثقيلة، نومها عميق لكنه بلا راحة. استيقظت قبل الفجر، كأن قلبي أيقظني. صليت، رفعت يدي، دعوت الله بكل ما بقي لي من قوة. لم أطلب شيئًا كبيرًا، فقط قلت: يا رب، صبرنا. سمعت أبي يستيقظ هو الآخر، أعد القهوة، وكأن الطقوس الصغيرة هي ما يبقينا واقفين.

خرجنا إلى المصحة مع أول الصباح. دخلت الغرفة بخطوات مترددة. كانت هناك، مستلقية، أضعف مما أذكرها، لكن حين اقتربت منها، أمسكت يدها، وسألتها بلهفة لا أعرف كيف أخفيها:

«كيف مرت ليلتك؟ هل نمت جيدًا؟ هل يوجعك شيء؟»

ابتسمت ابتسامة خفيفة، وقالت:

«كل شيء تمام».

كانت تلك الجملة كافية لأتنفس من جديد.

جلسنا معها ننتظر الطبيب. الوقت كان يمشي ببطء. دخل الطبيب، فحصها بدقة، قاس ضغطها، راقب الأرقام، ثم قال إن كل شيء مستقر، وإن المشكل الوحيد هو الماء المتجمع في جسدها. سحبوا منها حوالي لترين. كنت أراقب عملية الشفط وأنا أرتجف، لكن كلماته كانت تطمئننا قليلًا.

قال لها:

«إنك بخير... ويجب علينا أن نعيد الأمعاء إلى مكانها، ولن يبقى ذاك الكيس يزعجك مرة أخرى».

وأضاف أنهم سيعطونها الدم، وقد يسمحون لها بالخروج، على أن تُجرى عملية أخرى في الأسبوع المقبل. تشبثنا بكلامه كما يتشبث الغريق بخشبة. صدقناه، لأننا كنا بحاجة إلى أن نصدق.

قضينا ليلة أخرى في الدار البيضاء. أبي، الذي كان عمله في البحر مربوطًا بحالة أمي، رأى أن الوضع مستقر. أبي قبطان صيد، والبحر بالنسبة له مسؤولية لا تنتظر. إن وجدها قادرة، يذهب، وإن لم يجد، يبقى. في ذلك اليوم، اطمأن قليلًا وذهب إلى عمله.

بقينا أنا وأخي وأمي في المصحة إلى حدود الخامسة مساء. قيل لنا إنها ستخرج في الغد. كانت تلك الجملة تحمل أملًا، لكنها كانت أيضًا هشة، كزجاج رقيق.

عدت أنا وأخي إلى البيت. ركبنا الترامواي، والمدينة تمر من حولنا بلا اهتمام. عند وصولنا، قال لي إنه سيخرج قليلًا ثم يعود. دخلت البيت وحدي. كان الصمت كثيفًا، والبرد يملأ المكان. في

تلك اللحظة، شعرت بخوف غريب، خوف بلا سبب واضح، فقط إحساس بأن الوحدة ثقيلة.

أشعلت كل الأضواء، واحدة تلو الأخرى، كأنني أقاوم الظل بالنور. أردت أن أشعر أن البيت حي، أنني لست وحدي. دخلت المطبخ، بدأت أجهز ما سنأكله أنا وأخي. كنت أتحرك ببطء، أفكاري كانت في المصحة، في الغد، في الاحتمالات التي لا أريد أن أفكر فيها. كنت أتصرف كأن الأمور عادية، لكن قلبي كان يرتجف، يعرف أن الطمأنينة مؤقتة، وأن الخوف لم يغادر بعد.

الجـزء 18

جاء صباح آخر، يشبه كل الصباحات التي كانت تمر ثقيلة على صدري. أعددت قهوتي، ارتشفت منها قليلًا فقط، خوفًا من أن يزيد الصداع الذي صار رفيقي الدائم. ارتديت جلبابي، وحملت قلبي المثقل، وتوجهت نحو المصحة.

ركبت الحافلة، ونزلت بعيدًا قليلًا عن المصحة لأنها لا تمر من أمامها، فمشيت بخطوات بطيئة، وكأن الطريق يطول عمدًا ليختبر صبري. وصلت أخيرًا، صعدت إلى غرفتها، وجلست بجانبها لبعض الوقت، أراقب ملامحها وأحاول أن أقرأ ما تخفيه عيناها.

بعد قليل جاء الطبيب، فحصها، وابتسم ابتسامة بعثت فينا شيئًا من الطمأنينة، وقال لها: أنت بخير، لكن عليك أن تأكلي جيدًا حتى تستطيعي إجراء العملية وتعود حياتك طبيعية.

فرحنا... نعم، فرحنا بصدق، فرحًا خاليًا من الأسئلة، خاليًا من الخوف، كأننا تشبثنا بتلك الكلمات وكأنها وعد بالحياة.

نزلت إلى الإدارة، دفعت ثمن ليلتين قضتهما في المصحة، وأخذت ورقة الخروج. أمسكت الورقة بيدي، وصعدت لمساعدة أمي على الخروج. خرجنا، توجهنا إلى البيت، صلينا، أكلنا، ثم شددنا الرحال من جديد نحو محطة السفر، متجهين إلى الناظور.

كان يومًا عاديًا... وصلنا إلى البيت، وهناك طلبت مني السماح. قالت بصوت مكسور:

سامحيني، أنا أتعبك معي... الطريق، السهر، الألم.

في تلك اللحظة انحدرت دموعي على خدي دون إذن، وقلت لها: هذا واجبي يا أمي، إن لم تحملك هاتان العينان فهناك عين أخرى، وإن تعبت فهناك رأسي، وكل طلباتك أوامر.

كانت كلها أمل، متشبثة بفكرة واحدة: لم يتبق سوى عملية واحدة، وسترتاح بعدها من كل هذا العذاب.

ذلك الأسبوع الفاصل عن العملية كان كله استعدادًا وأملًا. أكل صحي، سلطات، سبانخ، كل شيء لتقوية جسدها. لكن فجأة، انقلب كل شيء. صارت كل لقمة تأكلها تعود قيئًا، لا شيء يستقر. اتصلنا بالطبيب، أعطاها دواء للغثيان، لكن بلا فائدة.

جاء يوم العملية. سافرت وحدها... لم تكن تحب أن يحضر معها أحد غير أبي. وأنا، في تلك الأثناء، كنت أتهيأ لإعداد بحث الإجازة. أخبرت الأستاذ أنني لا أستطيع إنجازه، فالوقت لا يرحمني، لكنه قال لي: حاولي، أرسلي لي جزءًا فقط، لا تضيعي السنة.

تشبثت بتلك الفرصة، وأقنعت نفسي أن أمي بخير، وأنها ذهبت لإجراء آخر عملية، وستعود بالشفاء، ولم يخطر ببالي الأسوأ أبدًا... كنت أؤمن بالتفاؤل حد العمى.

ذهب أبي معها، ترك عمله وبقي إلى جانبها. أُجريت العملية، وقيل لنا إنها نجحت. تحدث معنا أبي، طمأننا، وفرحنا من جديد. بقيت ثلاث ليالٍ في المصحة، وفي اليوم الرابع أعادها إلى البيت.

جاء ابن عمي وزوجته لزيارتها، ومعهما طفلتهما. فجأة، سقطت الطفلة على أمي، تحديدًا فوق موضع العملية.

قالت أمي إن كل شيء بخير، لم ترد أن تخيف أبي، رغم الألم. غادروا، وبقيت تلك الليلة تصارع وجعًا لا يوصف. لم تنم، ولم تشتك.

مع الصباح قالت لأبي: خذني إلى المصحة.

كان الدم قد ملأ اللباس. أخذها أبي على عجل بسيارة أجرة. لم نكن نعلم شيئًا في تلك اللحظات. فحصها الطبيب الذي أجرى العملية، واكتشف أن الجرح قد انفتح. حاول إصلاح الأمر بأداة تشبه المكواة، لكن بدل أن يصلح، زاد الأمر سوءًا.

لم يكن هناك حل سوى إدخالها إلى الإنعاش. وضع لها أنبوبين: واحدًا لتصريف السوائل، وآخر لإيصال الدواء، حتى تتجمع الجروح ويتمكنوا من خياطتها من جديد.

بقيت أكثر من خمسة عشر يومًا في الإنعاش. كنا نتواصل معها فقط عبر الهاتف. كانت تقول لنا دائمًا: أنا بخير.

لم يكن يُسمح بالزيارة إلا في أوقات محدودة.

ثم جاء اليوم الذي قرروا فيه نقلها إلى غرفة عادية. هناك بدأت رحلتي معها. شددت الرحال وحدي، وسافرت إليها. كنت أذهب صباحًا، أجلس بجانبها طوال النهار، ومع حلول الليل أعود إلى البيت وحدي، لا يسكنه سوى ذكرياتها.

كنت أشعل كل الأضواء، كأنني أقاوم الظلام والوحدة. أخرج إليها مع الثامنة صباحًا، وأعود مع التاسعة ليلًا.

كانت حالتها تتدهور يومًا بعد يوم. في الصباح تبدو أفضل، لكن في الليل ترتفع حرارتها، ويعود الخوف.

في أحد الأيام قالت لي: أريد أن أستحم.

ساعدتها. لم يكن استحمامًا حقيقيًّا، بل مسحًا للجسد المتعب. كنت أمسك منشفة مبللة بالصابون، أمررها برفق، ثم أبدلها بمنشفة نظيفة، قطعة قطعة، كأنني أغسل الألم نفسه.

قرر طبيبها إضافة حصص العلاج الكيميائي. نزلت إلى الإدارة، سلموني البروتوكول، وشرحوه لي. كان نفس البروتوكول المعتاد... نفس الكلمات، نفس الجمل، نفس الأسطوانة التي حفظتها عن ظهر قلب، لكن قلبي لم يعد يحتمل التكرار.

كان ذلك طريق الألم... طريقًا طويلًا، مشبعًا بالصبر، بالدموع المكتومة، وبحب لا يعرف الاستسلام.

الجـزء 19

كانت أول حصة علاج بعد العملية قاسية عليها بشكل لم نعهده من قبل. لم نكن نعرف إن كان جسدها لم يعد قادرًا على الاحتمال، أم أن الإرهاق المتراكم أنهكها حتى العجز. أُجريت لها الحصة داخل الغرفة التي كانت ترقد فيها، غرفة صارت فجأة أضيق من أن تحتوي وجعها، وأثقل من أن تحتمل صمتنا. كنت إلى جانبها منذ فترة العصر، أراقب أنفاسها، تغير ملامحها، وأحاول أن أُقنع نفسي بأن كل ما يحدث عابر... مجرد مرحلة وستمر.

لاحظت ظهور كدمات في رجلها، كأن الجسد بدأ يبوح بما يعجز اللسان عن قوله. أخبرت الطاقم الطبي، فقالوا إن الأمر قد يكون حساسية، وإنهم سيجرون اختبارًا للاطمئنان. في ذلك اليوم قالوا لنا إن الوضع «مستقر». قلبي لم يصدق الكلمة، لأن عيني كانت ترى شيئًا آخر.

قبل أن أغادر، قالت لي كلمات لم تكن عادية، كلمات خرجت منها بهدوء يشبه الوصية. قالت:

«أنا أحبكم... وأحب أبناءكم، حتى الذين لم يولدوا بعد».

لم تكن تعرف أن هذه الجملة ستظل تتردد في داخلي كصدى لا ينتهي. شعرت حينها بارتجاف في قلبي، وكأن شيئًا ما ينكسر دون

صوت. حاولت أن أطرد الفكرة، أن أُقنع نفسي بأنها مجرد كلمات حب، لكن قلبي كان يفهم قبل عقلي.

حين حان وقت خروجي، تركتها في الغرفة، ظننتها ليلة عادية، ليلة أخرى من ليالي المستشفى التي اعتدناها. لم نكن نعلم أنها في تلك الليلة نُقلت إلى الإنعاش. لم يخبرنا أحد. عرفنا فقط في الصباح... وكأن الحقيقة انتظرت أن ننام لتظهر.

ذهبنا أنا وأبي إليها، قالوا لنا إن شخصًا واحدًا فقط يمكنه الدخول. نظرت إلى أبي وقلت له:

ادخل أنت الآن، وسأدخل أنا في المساء.

دخل أبي، وانتظرت خارجه، أعد الدقائق، أراقب الباب، أبحث في وجوه الممرضين عن أي إشارة. حين خرج، سألته بسرعة ولهفة:

كيف حال أمي؟

قال لي: هي بخير، ستتعافى إن شاء الله.

تمسكت بهذه الجملة. قلت في نفسي: هذه ليست المرة الأولى التي تدخل فيها الإنعاش، لقد خرجت من قبل أقوى... ستخرج هذه المرة أيضًا.

لكن الأيام كانت تقول شيئًا آخر.

منذ يوم العملية، لم تدخل لقمة واحدة إلى فمها. كانت تتغذى عبر الوريد فقط. جسد يعيش بلا طعام. دخلنا عند طبيبها وسألناه بقلق:

هل هذه الحالة طبيعية؟ ما الذي يحدث؟

قال لنا إنه يجب إجراء فحص بالأشعة، هو ما سيحسم كل شيء. عندها بدأ الخوف يكبر داخلي، ليس خوفًا مفاجئًا، بل خوفًا بطيئًا، ثقيلًا يضغط على الصدر مع كل نفس.

اتصلت بإخوتي، قلت لهم:

تعالوا، ما دامت أمي مريضة وأنتم بعيدون، تعالوا نقضي بعض الوقت معًا، نكون قريبين منها.

لم أقل لهم الحقيقة كاملة، لم أرد أن أُرهق قلوبهم بالكلام. بعض الأشياء لا تُقال... تُرى.

في المساء، انتظرت وقت الزيارة فقط لأراها. دخلت الغرفة، اقتربت منها، قبّلت جبينها، كان دافئًا لكن الروح متعبة. قلت لها:

أمي، هل أنت بخير؟ هل أنت مستيقظة؟

سألتها عن الصلاة، فقالت إنها صلت، لكنها لم تكن تعرف الوقت. الزمن عندها كان يذوب، ونحن معه.

قلت لها:

كيف تشعرين؟

فقالت بهدوء مؤلم:

«الطبيب هو الله يا ابنتي... ربي ابتلاني، وهو قادر أن يرفع عني هذا البلاء».

كانت مسلمة، راضية، وكأنها تهيئ نفسها لأمر أكبر مما نحتمل.

ثم قالت بصوت ضعيف، كأنه يأتي من مكان بعيد:

أريد أن أشرب... أرجوك.

طلبت من الممرضات أن يعطوها ماء، قالوا إن ذلك ممنوع، وإنه يمكنني فقط أن أبلل قطعة قطن وأمسح بها فمها. فعلت ذلك، وقلبي يتقطع. شعرت كأن سكينًا باردًا يُغرز في صدري. أمي عطشى... وأنا عاجزة.

كانت مربوطة بالأجهزة، أصواتها عالية، الأضواء قاسية، يداها زرقاوان من كثرة الإبر، جسدها النحيل محاصر، وروحها وحدها تحاول أن تبقى قوية. جلست بقربها، أحاول أن أبتسم، أن أكون ثابتة، بينما داخلي ينهار.

بعد عشر دقائق فقط، طلبوا مني الخروج. قبل أن أخرج، طلبت من أبي أن يدخل. دخل، وبقيت أنتظر. حين خرج، سألته:

ماذا قالت لك أمي؟

قال لي: لم تقل شيئًا.

لكنني علمت لاحقًا أنها كانت توصيه... كانت تودعه بطريقتها الصامتة.

خرجنا من المصحة. المطر كان ينهمر، والليل مظلمًا، كأن السماء تشاركنا الحزن. مشيت إلى جانب أبي، وبكيت. بكاء خافتًا ثم بكاءً مريرًا. شعرت بأبي يبكي أيضًا، ثم قال لي بصوت مكسور:

أمك ليست بخير.

انفجرت بالبكاء، فقال محاولًا أن يضمد قلبي:

ستتحسن... ستعود بخير.

في تلك الليلة، تواصلت مع إخوتي. كانوا في الطريق. لم أقل لهم شيئًا. لم أرد أن أسرق منهم الأمل بالكلمات. أردت لهم أن يروا الحقيقة بأعينهم... لأن بعض الوداع لا يُمهد له، وبعض الألم لا يُخفف.

الجزء 20

كنت في تلك الأيام ضعيفة... ضعيفة إلى درجة لم أعرفها من قبل. لم تكن لي رغبة في الطعام، ولا قدرة على الحديث، ولا طاقة على شيء. كنت فقط أجلس فوق سجادتي، أضم نفسي إلى نفسي، وأبكي. أبكي بصمت أحيانًا وبشهقات تخنق صدري أحيانًا أخرى. كنت أشعر أن القوة انسحبت من جسدي، وأنني صرت ظلًّا لابنة كانت يومًا ما قوية.

أقسى ما كسرني أنني لم أستطع تلبية طلب أمي الأخير. لم تطلب المستحيل... لم تطلب إلا شربة ماء. ماء فقط.

وكنت عاجزة.

عاجزة أمام الأجهزة، أمام القوانين، أمام الخوف، وأمام ضعفي. هذا العجز ظل يطاردني، لا كذنب، بل كجرح مفتوح.

ضعفها كان واضحًا... ضعفًا يخيف. كنت أراها تذوب أمام عيني، وأحاول أن أتشبث بالأمل، بينما الحقيقة كانت أقرب من أن تُنكر. أبي، رغم حزنه وانكساره، هو من تكفل بالعشاء. أعد الطعام، رغم أننا لم نأكل. الحزن كان أثقل من الجوع. ومع ذلك، كان يحاول طمأنتنا، يكرر:

"أمكم ستتحسن... ستعود بخير".

تفرقنا كل إلى غرفته تلك الليلة، على أمل هش، ونوم متقطع.

استيقظت قبل الفجر. وصلت أخواتي، سلمت عليهن وبكيت بين أذرعهن، وكأن الدموع كانت تنتظر حضنًا آمنًا. في تلك اللحظة، جاء الاتصال من المصحة:

"نحتاج دمًا... حالة أمكم تتطلب ذلك".

خرج أبي مسرعًا، سمّح فينا، وذهب مع أخي، وبقينا نحن في صدمة. اتصل بنا أبي وقال إن عمنا سيأتي ليأخذنا. كنا نسأله بقلق:

"وأمي؟"

فيجيبنا:

"أمكم بخير... سيعطونها الدم وستتحسن".

لكن قلبي شعر بشيء آخر. شعرت أن أبي يكذب علينا... لا لأنه يريد خداعنا، بل لأنه يحاول حمايتنا. أبي الذي كان يتركني أتنقل وحدي بالحافلات والتراماواي، صار الآن يرسل عمي ليأخذنا. أدركت أن الأمر أخطر مما يقال.

جاء عمي، وذهب بنا على أمل أن نراها. دخلت أختي الكبرى أولًا. ما إن رأت أمي في تلك الحالة حتى لم تستطع التماسك. خرجت تصرخ في وجه الطبيب، تصرخ بوجع:

"كيف الآن تقولون خذوها؟ في البداية كنتم تطلبون منا كل شيء، والآن تقولون خذوها؟"

كنت أسمع صراخها، وكل صرخة كانت تطعنني.

دخلت أنا بعدها. رأيتها... ولم تكن كما تركتها. كانت حالتها أسوأ. تنفس اصطناعي بصعوبة، صمت كامل، لا كلام، لا حركة. فقط جسد يتشبث بالحياة، وروح كأنها تستعد للرحيل. خرجت وطلبت من أختي الصغرى ألا تدخل. خفت عليها أكثر مما خفت على نفسي. قلت لها:

"إن كنت قادرة وتريدين الدخول فادخلي، لكن أمي ليست مستيقظة ولا تتكلم... من الأفضل ألا تريها هكذا".

أخواتي كن كل ما أملك. أي ألم يصيبهن كان يصيبني مضاعفًا. كنت أخاف عليهن أكثر مما أخاف على نفسي. كنت أقول في داخلي: دعوني أنا أحزن، فقط لا تحزنّ. رؤيتهن موجوعات كان يكسرني.

بكينا... جففنا دموعنا... وعدنا إلى البيت. أختي كانت تحاول التعلق بأي أمل، تقترح الذهاب إلى العطار، البحث عن أعشاب. وأبي، في الجهة الأخرى، كان يحضر الإسعاف، يجهز التنفس الاصطناعي لنقلها من الدار البيضاء إلى الناظور. كان يفعل المستحيل... ونحن نجلس نبكي، نراقب الألم في وجوه بعضنا، وأخي مع أبي.

نجح أبي في إيجاد إسعاف، اتفق على كل شيء، وقرروا الخروج من المصحة حوالي الثامنة مساء. كنا نحضر الحقائب، نتهيأ للسفر، نتمسك بالأمل الأخير. وفي لحظة صامتة، التقيت بأخي. لم يتكلم. فقط حرك شفتيه بلا صوت:

"أمي ماتت".

توقف النفس في صدري. شعرت أن الهواء خانني. لكن خوفي الأكبر لم يكن علي... كان على أخواتي. لم أصرخ، لم أنهر. كنت فقط أفكر: كيف أخرجهن من هذه الصدمة؟ كيف أحميهن؟

نزلنا، فوجدنا عمي وزوجته. قالا لنا ببرود قاتل:

"لم يعد هناك ما نخفيه... أمكم ماتت".

لو وجدت الأرض تحملني لهربت من تلك اللحظة.

الصدمة كانت عنيفة، خاصة على أخواتي اللواتي جئن لرؤيتها في نفس اليوم، فإذا بهن يسمعن خبر وفاتها. حاولوا إخراجنا، خوفًا من الفضيحة، فصعدنا إلى الأعلى وبكينا. كنت أقول لنفسي: يجب أن أكون قوية... يجب أن أتماسك لأجلهن.

قلت لهن:

"أمي رحلت شهيدة... ربي أحبها... فعلت المستحيل من أجلنا، وربي اختارها".

أختي الأخرى توجهت إلى سجادة الصلاة، صلت وبكت، تطلب من الله الصبر. في تلك اللحظة، شعرت أن الله منحني صبرًا خاصًّا، ليس لأجل نفسي، بل لأجل أخواتي. قلت في داخلي: سأنسى ألمي الآن... لدي مهمة أكبر.

وصل أبي بعد أقل من ساعة. كان مكسورًا، متألمًا، فقد شريكة عمره. جمعنا، وقال لعمي:

"هل تستطيع إيصال بناتي إلى الناظور، أم أبحث عمن يفعل؟"

ثم بقي هو لإتمام الإجراءات. انطلقنا في الطريق، طريق كله بكاء. توقفنا في المحطة، حاولنا الأكل، لكن لم يستطع أحد. وصلنا إلى قريتنا حوالي الخامسة صباحًا. هناك، عادت الذكريات كلها... كل زاوية تنطق باسمها.

الوداع الأخير كان قاسيًا. اتصل بي أخي في الصباح وهو يبكي، وقال:

"ياسمينة... أمي ماتت وهي تضحك".

هناك فقط استجمعت نفسي وقلت له:

"الحمد لله... أمي بخير... لن أخاف عليها... هي الآن بين يدي الله". سألته عن حالته وحالة أبي. أمنته على نفسه وأبي، وأن الأمور كلها بخير ما دامت أمي ضاحكة. أنهيت كلامي بقول: اللهم ارزقنا الصبر.

جاءت جدتي وخالاتي، كنت أحتضنهن وأقول:

"أمي ماتت وهي تضحك... مستبشرة".

وكأن تلك الابتسامة كانت الرسالة الأخيرة... أنها رحلت مطمئنة، وتركت لنا وجع الفراق، وأمان الذكرى.

الصدمة صعبة... والفراق أصعب...

لكن الأمهات لا يرحلن تمامًا.

يسكن فينا... في دعائنا... في صبرنا... وفي كل مرة نقول: يا رب صبرنا.

الجزء الأخير.

جاء أبي مع أمي في سيارة نقل الأموات، وكانت أمي في الصندوق. الإجراءات استغرقت وقتًا طويلًا، والقلوب متوترة، والطريق طويلة. كانت الساعة الثالثة زوالًا حين بدأوا رحلتهم الأخيرة. لم يصلوا في الوقت المحدد، وكان وقت صلاة العشاء قد اقترب، ولم يؤدَّ بعد حين وصلوا. وكأن القدر أرخى لنا يومًا إضافيًّا لنودعها، يومًا لنحتضنها في آخر لحظة قبل أن يغيب نورها عن عالمنا.

قبل أن يصلوا، لاحظت عمتي شيئًا غريبًا: رائحة مسك خفيفة، عذبة، لم تعرف مصدرها. كانت تشمها ولا تعرف من أين. لم تكن تعلم أن هذه الرائحة كانت تصدر من جسد أمي إلا بعد دخولها البيت.

دخل أبي في حالة من الصمت العميق، حزين، منهك، لم ينم الليلة الماضية، ثيابه غير مرتبة، وكأن قلبه توقف عن التفكير في أي شيء سوى ألم الفقد. الطريق كان طويلًا، والإجراءات كثيفة، وكل لحظة تمضي تثقل قلبه أكثر. دخلت أمي غرفتها. تلك الغرفة التي دخلتها وهي عروس، كأنها عادت إلى عالم الذكريات، إلى مكانها الأخير في هذا العالم، إلى بيتها الذي ستتركه إلى الأبد.

توافد الناس عليها، كل من أحبها جاء لوداعها. رأوها جميعًا، ووقفوا أمامها بصمت، متأملين وجهها الذي كان شاحبًا، مصفرًّا، لكنه كان ضاحكًا، مبتسمًا كأنه يرسل لنا رسالة أخيرة بالطمأنينة.

حين رأيتها، شعرت براحة غريبة، رغم الألم الذي يعتصرني. عرفت في تلك اللحظة أن هذه آخر مرة أراها فيها... آخر مرة تبتسم لي، آخر مرة أحتضن فيها عينين تعلمت منهما الصبر، والرحمة، والحب الصامت.

عشت معها صبرها، وعشت معها ألمها ومعاناتها، كنت أراقب كل لحظة من لحظات حياتها الأخيرة. كانت كل صلاتي أدعو: يا رب اشفها، يا رب احفظها... حتى وجدت نفسي أغير الدعاء: اللهم ارحمها، اللهم اغفر لها، اللهم ارزقها الجنة. كانت رحلتها هنا قد انتهت... لكن رحلتها الحقيقية بدأت في جنات الله.

حضرت زوجة عمي، مع التي غسلت لها، قالت كلمات لم تغادر قلبي أبدًا: «لم تتعبنا... لم تثقل كاهلنا... كانت خفيفة، تساعد نفسها، كأنها مرتاحة». دموعي انهمرت حين سمعت هذا، شعرت بأن الله لم يخذلها، وأنه منحها خاتمة حسنة بعد سنوات الألم الطويلة. ضحكتها... تلك الضحكة الأخيرة التي لم تفارق مخيلتي حتى الآن... كلما أغمضت عيني، رأيتها مشرقة، رغم كل ما مرت به من تعب وألم.

وفي اليوم التالي، حلمتها. قالت لي: «أنا بخير». وأرتني الجرح الذي كان في بطنها، كأنها تقول لي إن كل شيء أصبح على ما يرام، وأن روحها الآن حرة، خالية من كل ألم. شعرت حينها بطمأنينة غريبة، لم أشعر بها من قبل، وكأن الله همس لي: لا تخافي... أمك بخير الآن.

جاء يوم الوداع الأخير. كان يفصل عن مغادرة بيتها ساعة قبل صلاة الظهر لا يمكن وصفها، لحظة توقف فيها الزمن. نظراتي كانت مع إخوتي ودعواتي معهم، كانت الدموع تسبق الكلمات. أبي، رغم حزنه العميق، كان يقف شامخًا، محاولًا أن يمنحنا القوة. كنت أنا وأخواتي نحاول أن نثبت بعضنا، لكن صعوبة الفقد كانت أكبر من أي عزيمة. كل خطوة نحو خروج أمي من البيت كانت أصعب من التي قبلها، وكل خطوة كانت ثقيلة على قلوبنا كما لو كانت تحمل معها سنوات من الحب والحنان التي لم نودعها بعد.

دعونا الله بصوت مرتجف، وقلوبنا تتمزق بين البكاء والحزن، بين الألم والشوق الذي لم يهدأ. وكل كلمة دعاء كانت محاولة لتهدئة الروح، وتخفيف وجع الفقد.

وهكذا انتهت قصة أمي... قصتها كما عشتها، كما أحببتها، كما بكيت عليها. أسأل الله أن يتقبلها في عليين، وأن يجعل قبرها روضة من رياض الجنة، وأن يجمعنا بها في دارٍ لا فراق بعدها.

ولا تنسوها من دعواتكم، فالدعاء الصادق يخفف عن القلب ألم الفقد، ويرفع روحها إلى السماء حيث لا تعب، ولا ألم، ولا فراق.

انضم إلى مجموعة دار بسمة على واتساب، من هنا

دار بسمة للنشر الإلكتروني

دار مغربية، رقمية، تأسست في 2017

دار بسمة للنشر الإلكتروني من أهدافها مساعدة الشباب المغاربة والعرب على نشر إبداعاتهم، وإيصال أصواتهم وتغريداتهم إلى العالم كله، كما تطمح لاكتساح عالم النشر الإلكتروني في كل الأقطار العربية..

كما أننا –في محاولة منّا لتغذية شريان الثقافة– نسترشد بالضمير الحي من أجل نشر المحتوى الثمين، حاملين على كواهلنا رسالة التنوير الحقيقي، ومدركين كل الإدراك لقيمة القلم النبيلة، لذلك كنا حريصين على نشر كل ما هو قيم. في دار بسمة للنشر الإلكتروني نساند المؤلفين وندعمهم لإيصال إبداعاتهم لملايين من القراء، ونرشدهم إلى آليات فنية تعينهم على تحسين أساليب الكتابة والإبداع. وتقريبا لهذه الغاية تقوم الدار بتنظيم مسابقات متعدّدة، والإشراف عليها مجانا من أجل اكتشاف المواهب الشابة التي تستحق أن تُنشرَ أعمالُها بين القرأَة والمثقفين، وذلك تشجيعا لهم على الاستمرارية في الكتابة الإبداع.

المحتويات

الإهداء 6
المقدمة 10
الجزء 1..14
الجزء 2..18
الجزء 3..22
الجزء 4..25
الجزء 5..30
الجزء 6..35
جزء 7 39
الجزء 8..42
الجزء 9..47
الجزء 10..52
الجزء 11..61

الجزء 12 68
الجزء 13 73
الجزء 14 77
الجزء 15 81
الجزء 16 89
الجزء 17 93
الجزء 18 98
الجزء 19 102
الجزء 20 107

حياة أمي.... بين الألم والأمل

ياسمينة قليس

كاتبة مغربية من مواليد أكادير، نشأت بين الدار البيضاء والناظور، وحاصلة على الإجازة في الدراسات الإسلامية. تنتمي لأصول ريفية شكّلت جزءًا من هويتها.

شغوفة بالقراءة في الأدب والفكر، فكان هذا الكتاب ثمرة تجربة إنسانية حقيقية، كتب بصدق ليصل إلى القلب.

Bassmabook
00212771814934
darbassma1@gmail.com